ذة. نادية مداني

نساء تائهات

نادية مدني

اسم الكتاب: نساء تائهات

اسم الكاتبة: نادية مدني

نوع العمل: قصص ونصوص

الرقم الدولي EBIN: 16-1-274-231026

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2023م / 1445هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

داربسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)

Darbassma1@gmail.com

المملكة المغربية

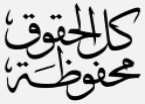

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

نساء تائهات

نصوص

نادية مدني

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى أمي حبيبتي

إلى بناتي الغاليات

وكل النساء اللّواتي يبحثنَ عن تحقيق الذّات..

كل تشابه مع الواقع فهو محض الصّدفة

أصدقاء وأصدقاء..

اعتدت ألَّا أكذب إلَّا في حالات نادرة جدًّا، ذلك؛ لأني لا أحب الخداع، وأؤمن بأن مَن يحبُّونك سوف يتفهَّمون مواقفك وآراءك طالما كنت صادقًا معهم، ونشدت الحقَّ والعدل في حياتك. لكنَّ الأمر ليس سهلًا على ما يبدو، فمعظم البشر – إن لم يكونوا كلهم– يحبُّونك أن تُوافقهم ولو على ظلمٍ؛ لذلك نجد الكثيرين ممَّن يُخلصون النُّصح ويرفضون الكذب منعزلين في حياتهم ولا تبقى معهم إلَّا قلَّة من الأهل والأصدقاء..

بالأمس فقط، فقدتُ أصدقاء كثيرين أو ممَّن كنت أعدُّهم من الأصدقاء، أداروا ظهورهم؛ لأن رأيًا لي لم يعجبهم، ومن قبلهم فقدتُ دعم الأهل والأحباب؛ لأنِّي اخترتُ أن أعيش حياة هادئة، بعيدًا عن صراعات المصالح ومنافسات المنافع..

أما عن زميلة دراستي أثناء فترة التَّكوين المهني في المدرسة العليا للأساتذة.. فما زلت أتذكَّر عندما التقينا صدفة بعد طول غياب، لم نكن حينها صديقتين، ولا يمكن أن نكون؛ كونها صاخبة جدًّا وتتدخَّل كثيرًا في شؤون الآخرين.

عندما جمعتنا الصُّدفة في إحدى المؤسَّسات التعليمية، أبدت فرحًا وابتهاجًا كبيرينِ لدرجة أنَّني خجلت من برودة مشاعري واعتدال ردَّة فعلي، لكنَّني رحَّبت بفكرة اللِّقاء مرَّة أخرى، ثم تكرَّرت الزِّيارات الواحدة تلو الأخرى..

وفي كلِّ مرَّة كانت زميلتي القديمة تأتي مع أطفالها الأربعة الذين يقلبون البيت رأسًا على عقب، ويُفتِّشون أغراضي، ويأخذون ما يحلوا لهم وهم عائدون إلى بيتهم.

كانت تنتهز جميع الفرص لتقول بأنَّها آتية، حتى أصبحت لا أردُّ على الهاتف وأضطر لأن أقول لها بأنَّني مُسافرة.. ورغم ذلك لم أسلم منها، فكثيرًا ما كانت تتَّصل من رقم آخر فأُجيب عن غير علم أو تسأل عن مكان سفري وسببه وعن وقت العودة منه؛ لترى إن كانت هناك إمكانية للِّقاء أم لا..

تحولت حياتي الهادئة إلى جحيم بسببها، وأصبحت أستيقظ فزعةً باللَّيل لكي أتأكَّد أنَّها ليست هنا، وكم استغرب النَّاظر كثيرًا عندما طلبتُ منه ألَّا يُخبرها بمواقيت عملي إن جاءت تسأل عنِّي في الثَّانوية العامة.

كان تحرُّشًا من نوع آخر لم أعهده من قبل، كان تسلُّطًا وإرهاقًا معنويًّا لا يُطاق! كم فرحت حينما استجمعت شجاعتي في أحد الأيام لأقول لها: "كفى!". وأغلق الهاتف في وجهها.

تخلَّصت من عذابها، فقد كانت ممَّن قال عنهم كانط: إنَّهم مثل الغبار، إذا ذهبوا يكون اليوم جميلًا!

لكنَّ هناك من الأصدقاء ممَّن إذا ذهبوا يصبح اليوم أقل جمالًا..

عجوز قاسية

ابتسمتُ حين حكى لي ذلك الرَّجل الشَّيخ عن ابنة عمَّته التي كان يُريد الزَّواج منها في شبابه ولم يُوافق والده بسبب الشُّروط التي فرضها أهلها عليه رغم القرابة التي تجمعهم.

قال لي مُتأسِّفًا: كان عليَّ أن أصبر حتى يُوافق الوالد، لقد ندمت أيَّما ندم على عدم الزَّواج منها.

قلتُ له مُتعجِّبة: لمَ النَّدم؟ هل قطعت العلاقة مع العمَّة وابنتها؟!

قال: لا، بالعكس، ظلَّت العلاقات جيِّدة، ولكنِّي ندمت على عدم الصَّبر والزَّواج ممَّن أردت.

ضحكت خفية؛ لأنَّني اعتقدت أنَّه في ذلك العمر لا يجدر به التَّفكير هكذا.

في اليوم التَّالي، كانت زوجته العجوز معه، ينتظرانِ مثلي أن يسمح لهما بالدُّخول إلى المصحَّة النَّفسية لزيارة ابنتهما المريضة. لم أستطع التغلُّب على الرَّغبة في النَّظر إليها حتى أفهم سبب ندمه على الزَّواج منها.

كانت امرأة طويلة القامة، بيضاء البشرة، على وجهها تجاعيد كثيرة، لكن يبدو أنَّها كانت جميلة في شبابها.

فقلت في نفسي: "هؤلاء الرجال لا يملأ أعينهم سوى التراب!"

دخلنا فيما بعد إلى قاعة الانتظار، والتقى كلٌّ منَّا بالشَّخص الذي يودُّ زيارته، كانت هناك عائلة أخرى بالجانب، احتدَّ النِّقاش بينهم حول موضوع ما، ولكن بشكل عادي لا يدعو للقلق، كانوا مختلفين بشأن المريض، ويتكلَّمون بصوت مرتفع كجميع العائلات في لحظات التَّوتُّر.

لم يزعجني ذلك قطُّ، لكنَّ العجوز البيضاء الطَّويلة قامت من مكانها وذهبت تبحث عن الممرضات لتقول لهنَّ بأنَّ الأمور غير عادية، وأنَّ عليهنَّ إخراج تلك العائلة؛ "لأنَّهم يتسبَّبون في إزعاج كبير!"

حضرت ثلاث ممرِّضات وطلبن من أهل المريض أن يغادروا المستشفى، فانهار المريض بالبكاء.

كان الشَّيخ على حقٍّ؛ زوجته قاسية وغير متسامحة، وتصرَّفت بشكل أناني جدًّا. فوجدت له عذرًا لما قال بالسَّابق عن ندمه وتحسُّره على ابنة عمَّته. فهناك من الأشخاص من يجعلك تندم طوال حياتك على الارتباط معه.

فوضى

تخاصمت مع زوجي وبناتي، قلتُ لهم بأن الحياة صعبة معهم، وأنَّني تعبتُ من مُجاراتهم، قلت لهم:

"سافروا وحدكم ودعوني وشأني، أنتم في طريق وأنا في طريق آخر". حاولوا أن يسترضوني لكنِّي "ركبت" رأسي وعاندت، وفي الأخير انصرفوا.

جلست وحيدةً في البيت وشعرت بارتياح كبير، واستنشقت الهواء كما لو أستنشقه لأول مرَّة، فزالت عنِّي همومي مرَّة واحدة كمن يضع أحماله أرضًا.

ظللت أتنقَّل من غرفة لأخرى غير مُصدِّقة أنَّني استطعت الابتعاد عنهم، لطالما عاتبني والدي بسبب ذلك، قال لي: "أنت تُبالغين في الارتباط ببناتك، دعيهنَّ قليلًا لأنفسهنَّ وإلَّا تعبت كثيرًا". كان محقًّا، فهو أدرى منِّي بالحياة!

مرَّ اليوم الأول بسلام، والثَّاني كذلك، لكنِّي فهمت في الأخير أنَّني أخطأت حينما اعتقدت أنَّ كلَّ شيء يجب أن يكون على ما يُرام. كلَّا!

لا يجب أن يكون كلُّ شيءٍ على ما يرام، ولا كل شيء مثاليًّا، يجب أن يكون كلُّ شيء بخير فقط!

اتصلت بهم في الأخير لأقول لهم بأنَّني سألحق بهم، وأنَّني أودُّ أن أشاركهم عُطلتهم. فقد كان عليَّ أن أبتعد قليلًا لأرى أنَّ الفوضى جزء لا يتجزَّأ من حياتنا، وأنَّها من طبيعة الحياة والإنسان..

حرية

جاءت الطِّفلة رهف مع أمها كعادتهما في اللِّقاءات العائليَّة، الأم وابنتها، أو "البنت سرُّ أمها" كما يُقال، لا يكادانِ يفترقانِ. هي وحيدتها، ثمرة زواج مُستمرٍّ وفاشل، حيث الزَّوج دائمًا في حالة سُكر أو غياب..

أحسست بالعطف تجاه الاثنتين، فالأولى صبيَّة لا ذنب لها فيما يقترفه الكبار، والأخرى شابَّة جميلة تحمي ابنتها قدر الإمكان وتبحث عن مكان لهما تحت الشَّمس؛ للعيش بحرِّية وكرامة.

أسعدني كثيرًا أن أراهما في لباس العيد، مزهوتينِ، لا تفارق البسمة وجهيهما.

كانت الصبيَّة منطوية على نفسها من قبل، تعاني صعوبات في التعلُّم والاندماج، لكنَّ شيئًا ما حصل، فتغيَّرت الفتاة. وجدت الأم عملًا محترمًا وقارًا، فأصبحتا في مأمن من الحاجة والعَوز، واستطاعت الأم أن تنقل ابنتها إلى مدرسة أفضل. لم أُصدِّق كيف تغيَّرت أحوالهما جذريًّا بفضل راتب شهري مُستقرٍّ!

أحيانًا كثيرة يمكنك أن تُخرج النَّاس من الموت إلى الحياة إن منحتهم عملًا وأجرةً.. ومكانة بين النَّاس، وفرصة للحلم.. ومستقبلًا!

"الفقر ليس عيبًا، إنَّه جريمة!" كما قال الشي كيفارا.

جريمة؛ لأنَّه يقتل بسمة الأبرياء، ويُفرِّق الأهل والأحباب، ويقتل بواعث الأمل في النَّاس، ويدعو إلى اليأس والإحباط!

لمياء

لا زلت أذكر لمياء، الفتاة المجتهدة التي كانت دائمًا الأولى على الفصل، درستُها لسنتينِ مُتتابعتينِ، لم يكن أحد في جدِّيَّتها وعقلانيَّتها، وكانت أحب التَّلاميذ إلى مُدرِّسيها. كانت تريد أن تصبح طبيبة، وقد فعلت.

سألت عنها صديقاتها ذات يوم في إحدى المناسبات التي نظَّمها قُدامى التَّلاميذ للتَّعريف بثانويَّتهم والتعبير عن امتنانهم لأساتذتهم. قلن لي بأنَّ لمياء تغيَّرت كثيرًا بعد انفصال والديها، لا زالت الأولى على دفعتها دائمًا حتى في كليَّة الطبِّ، لكنَّها نزعت حجابها الذي كانت ترتدي دومًا، وقطعت علاقاتها بأصدقائها، وغيَّرت كثيرًا من شكلها. لقد أصبحت أكثر جاذبيَّة حتى لا يكاد يتعرَّف عليها أقرباؤها.

سألتُ: "المهم أنَّها بخير؟"

أجابت إحداهن: الحقيقة، لا!

– لم؟!

– لا أُريد أن أتحدَّث عن السَّجائر وشرب الخمر، ولا عن سراويل الجينز المقطَّعة.. ولكن هناك ما هو أدهى وأمرّ..

– كيف ذلك؟!

– لمياء أصبحت تُرافق كبار السنِّ ممَّن في عُمر والدها أو أكثر، خصوصًا ميسوري الحال منهم. تذهب معهم إلى الحانات والمطاعم، وأحيانًا إلى بيوتهم.

تساءلت عن السَّبب الذي قد يجعلها تفعل ذلك، هل هي بحاجة إلى المال؟ أم كانت بحاجة إلى عطف الوالد وحماية الأب؟ هل تثور لمياء بذلك على هذا المجتمع القاسي الذي يفرض قيودًا كثيرة على البنات؟ هل تنتقم من والديها على انفصالهما المتأخِّر الذي قد يجعلهم حديث النَّاس؟

تساءلت عن هذينِ الوالدينِ أيضًا، وعن قرار الانفصال الذي تأجَّل إلى أن حصلت لمياء على البكالوريا، مُعتقدين أن ابنتهما وصلت إلى برِّ النَّجاة، وأنَّه حان لكل واحد أن يختار حياته من جديد!

لم تصل لمياء إلى برِّ النَّجاة بعد، كان الأجدر أن يصبرا بضع سنوات أُخرى حتى تنضج الفتاة وتعرف ما تريده من الحياة بالضَّبط. كان الأفضل أن يبقى لديها بيت، ووالد ووالدة؛ لتعود إليهما وقت الحاجة.

ربما تكون لمياء في حيرة مؤقتًا، ثم تعود بعدها إلى جادة الصَّواب وتلتقي بمن يستحقُّها من الشَّباب.

المؤكَّد أنَّها ستكون طبيبة ناجحة جدًّا، وستنجح في تجاوز محنتها أيضًا، طال الوقت أم قصُر. يكفي أن تجد مَن يفهمها، ويكون صادقًا معها، ويحبُّها بحقٍّ..

علاقة صعبة

كانت امرأة فظَّة، غليظة القلب، سليطة اللِّسان، تعدُّ المؤسَّسة كمزرعة لها أو كمعمل، تأمر وتنهى، تصرخ وتصيح، تشتم وتلعن، تكاد لا يهنأ لها بال!

قال عنها المفتِّش يومًا: "بين النِّساء والكراسي علاقة صعبة!"

تطلب من المدرِّسات أن يحضرن أطباق الحلوى للاستمتاع بجلسة الشَّاي أثناء الاستراحة، أما سكرتيرتها فقد كانت متفوِّقة في جمع الأموال في المناسبات والأعياد.

لم يكن الجوُّ العام ثقافيًّا ولا علميًّا، كان شعبويًّا بامتياز. فلكي ترضى عنك المديرة؛ عليك بالحلوى والمجاملات.. كرهت العمل معها أيَّما كراهية، وفرحت بإعلام التَّكليف الذي جاء ليشعرني بأنَّ عليَّ الذَّهاب إلى مؤسَّسة أخرى من أجل التَّعويض. وحين ذهبت لأطلب منها استلام تلك المراسلة والتَّوقيع على آخر تاريخ لي في العمل؛ رفضت وقالت بأنَّ عليَّ أن أنتظر أسبوعًا آخر.

لحسنِ الحظِّ وجدت في آخر السَّنة طلبًا للتَّبادل، فسارعت للاتِّصال بصاحبه، وكان أن انتقلت بعيدًا عنها.

لا أذكر عنها كلمة طيّبة واحدة، ولا موقفًا حسنًا، ولا حتى أدنى من ذلك أو أكثر. كل ما أحتفظ به في ذاكرتي عنها أنَّها كانت أشبه بامرأة "سوقيَّة" منها بامرأة مُتعلِّمة...

عقوبة سجن

التقيت صدفة بتلك السيِّدة، لا زالت ترقد بالمستشفى، تقضي هناك عقوبة سجن. لم أتمالك نفسي بالبكاء عندما علمت قصَّتها من شخص آخر. لم أظن في حياتي أنَّ هناك مَن يتحمَّل مثل تلك الآلام كلها.

كانت غير واعية بما تفعل عندما ألقت حفيدها ذا التِّسعة أشهر في البئر. أُلقي القبض عليها وقضت نصف المدَّة في السجن على ما يبدو، والنصف الآخر في المصحَّة النَّفسية.

جاء ابنها ليزورها يومًا، عبَّر لها عن حبِّه وغفرانه لما حصل، لم يحقد عليها أبدًا رغم تسببها في موت ابنه الرَّضيع. كان متسامحا جدًّا إلى درجة أنَّه قدَّم تنازلًا لصالحها منذ البداية، فكيف له أن يفقد الاثنينِ؛ الأم والابن معًا؟ تبقَّى لديه أمٌّ على الأقل، هذا أفضل بلا شكٍّ!

لم أقاوم دموعي حين رأيتها يومًا تعانقه بحرارة في قاعة الزوَّار وهو يُقبِّل يديها، كان مشهدًا مُؤثِّرًا للغاية.

لا تكاد تلك المرأة تلتقي مع أحد إلَّا وتطلب منه التدخُّل لصالحها من أجل إطلاق سراحها.. لا أعرف إن كان بقاؤها هناك يعود إلى سبب

طبي أو إداري أو أي شيء آخر...كل ما أعرفه هو أنها غرقت في ندمها حتى النخاع، وأنها تقضي ليلها ونهارها في الصَّلاة.

كلما تذكَّرتها أشعر بالحزن الشَّديد عليها وأتساءل عمَّا يمكن فعله تجاه هؤلاء النَّاس الذين يرزحون تحت مآسي الحياة المختلفة..

سميرة وأنا

اعتدنا أن نقطع كل تلك المسافة من المدرسة إلى مركز المدينة على الأرجل، أربع كيلومترات من الحديث الشَّيِّق. لا نحسُّ بتعب أو ملل، كنَّا نتمنَّى أن يطول الطَّريق أكثر وأكثر حتى لا نفترق، سميرة وأنا، نتحدَّث عن كلِّ شيء.

أكثر ما كنت أحبُّه في هذا الحديث هو العفوية والشُّعور بالاطمئنان. لم يكن يدهشها شيء على الإطلاق، لا تطلق أحكامًا بالمرَّة، ولا تفقد هدوءها أو صبرها أبدًا.. صحيح أنَّها كانت تكبرني بثلاث أعوام، لكنَّ ذلك لم يكن له أيُّ أثر..

تخرَّجنا، وانقطع الاتِّصال بعد أعوام فقط. انشغلت بأسرتي كثيرًا، فلم أحاول البحث عنها، لكنَّها ظلَّت الصَّديقة التي حفرت وجودها عميقًا في وجداني، لا لشيء سوى أنَّها كانت تتقن فنَّ الإنصات واحترام الاختلاف، وتقبل الآخر..

لا أذكر الشَّيء الكثير عن أحاديثنا، لكنَّني أذكر بقوَّةٍ خصالها الحميدة واتِّزانها في التعامل مع الأشياء..

من الماضي.. أستاذة اللُّغة العربية

"قلبك هنا وعقلك هنا"، هكذا علَّقت أستاذة اللغة العربية على الرَّسم الذي وجدته في دفتري.

كانت قوية جدًّا، يخشاها الجميع بما فيهم أنا رغم ما كانت تُظهره من لطف تجاهي كتلميذة منضبطة جدًّا في الفصل، لا أكاد أغفل عن كلمة تفوه بها.

أفهمتنا منذ اللِّقاء الأول أنَّه لا مجال للإزعاج. "من تصلَّب أمامي كسرته!"، هكذا بدأت حصَّتها بحزم وشدَّة، فانضبط الجميع.

كانت أنيقة جدًّا مزهوَّة بنفسها، لا تحبُّ من يعارضها، ولا تحبُّ من يظهر عدم الاهتمام بدرسها. كان على الكلِّ أن يقف لها أثناء الدُّخول والخروج، تحبُّ القوَّة والسُّلطة، وتظهر بمظهر المرأة المتحرِّرة من القيود، الواثقة بنفسها، المعتزَّة بثقافتها وتعليمها.

هل كان ذلك يخفي نقصًا ما؟ فقد استطاعت أن تفرض الاحترام والتوقير لكنَّها لم تكن محبوبة أبدًا..

من الماضي.. فتاة جذَّابة

أحدث قدومها بلبلة في القسم، كانت من النَّوع الذي يُسمَّى في علم النَّفس بالشَّخصية المضادَّة للمجتمع، ترتدي ملابس عارية جدًّا وأحذية عالية، تتَّجه إليها الأعين أينما ذهبت.

انضمَّت إليها كلُّ الفتيات الجميلات اللواتي يرغبن في خلق مجموعة الأشخاص "الجذَّابين"، يتحدَّثن في مواضيع الحبِّ والزَّواج والموضة والمكياج، أو باختصار: كل ما يتعلَّق بحياة المرأة كامرأة تعيش أنوثتها بسعادة وانفتاح، مقابل من يرتدين "الوزرة" البيضاء، ويحملن "المحفظات" الثَّقيلة صباح مساء، كأنهنَّ لا زلن في المدرسة الابتدائية..

الحقيقة أنهن كنَّ يُثرن في الآخرين مشاعر الإعجاب والغيرة، فلا بدَّ أن تكون شجاعًا حتى تتميَّز في شكلك تمامًا، وناضجًا حتى تجعل من أشياء أخرى محاور مهمَّة في حياتك غير الدِّراسة قبل العشرين..

المهم أنَّها في نهاية السَّنة نجحت وتزوَّجت بألطف أستاذ في المدرسة، وجعلت كلَّ الفتيات يحلمن بحياتها السَّعيدة..

حالة نكوص

كانت نعيمة تُعاني من حالة نكوص شديدة عندما أتى بها والداها المسنَّانِ إلى المستشفى، لا تنطق بكلمة واحدة، ولا تذهب وحدها إلى المرحاض، ولا تأكل بمفردها. كانت كالطِّفل الرَّضيع، وهي بنت الثَّلاثين.

عندما مرضت أول مرَّة بالهلع في السَّادسة عشر من عمرها، لازمتها أمُّها ليل نهار، تنام بجانبها وتطعمها بيديها، وظلَّت على تلك الحال لسنوات.

وبدل أن تتحسَّن تراجعت حتى فقدت كلَّ استقلاليَّة لها.

كانت الأمُّ باحتضانها الزَّائد لابنتها تستمتع بمشاعر الأمومة، وتُوفِّر على نفسها مشاعر القلق والتَّوتُّر الذي يُصاحب الأمَّهات عندما يتركن أبناءهنَّ يخضن تجارب الحياة، وبذلك تخدع نفسها بأمان زائف.

فقد كان الأفضل لنعيمة أن تصاحبها خارجًا، وتُعرِّضها لمواقف الحياة اليومية المختلفة، وتلتقي بالأشخاص حتى تخفَّ نوبات الشُّعور بالخوف تدريجيًّا، كان الحديث والتَّفاعل مع كلِّ أشكال المنبِّهات

الخارجية سيجعل عقلها يقظًا باستمرار، لكن.. بدلًا من ذلك فقدت كلَّ ما تعلمته من قبل، وأصبحت في حالة نكوص شديدة.

فالعقل مثل سائر الأعضاء يضمر ويفقد لياقته إن لم يعمل بالشَّكل الكافي.

ارتياح

كانت قاعة الحفل ممتلئة بآباء وأمَّهات التَّلاميذ، يُشاهدون عروض أبنائهم على خشبة المسرح ويُصفِّقون لهم، فرحين، مبتهجين.. كل المدارس الخاصة تلعب على هذا الوتر الحسَّاس لدغدغة مشاعر الزهو والافتخار بفلذات الأكباد، حتى يعتقد الآباء بأنَّ تضحياتهم المادية لم تذهب سدى، وأنَّ الأمر يستحقُّ العناء.

كانت هناك امرأة بدينة جدًّا، تقف بين الحينة والأخرى لتُصوِّر العرض، وفي كلِّ مرة تحجب الرُّؤية عمَّن وراءها. طلب منها أحدهم أن تجلس ففعلت، ثم ما لبثت أن وقفت مرَّة أخرى من أجل التَّصوير، فأعاد الطَّلب للمرة الثانية والثالثة، وفي الأخير أجابت غاضبة، بنبرة فيها شيء من التَّهديد: "كفَّ عن مضايقتي؛ فأنت لا تعرف مع مَن تتحدَّث؟!"

لم يُبد أحد أيَّ اهتمام، ولم يلتفت إليها أيُّ شخص، أجابها الرَّجل بهدوء: "كوني من شئت سيدتي، فلا يهمُّني ذلك، كل ما يهمُّني هو ألَّا تُحجبي الرُّؤية عنِّي".

امتعضت السيِّدة، وانصرفت بانفعال شديد، شعر معه الجميع بارتياح كبير، عبَّروا عنه بابتسامة عريضة وهم ينظرون إلى بعضهم البعض.

مرض وولادة

أوصلت الشُّرطة فاطمة إلى المصحَّة النَّفسية بعدما وجدتها في حالة هذيان وهي حامل في الشَّهر التَّاسع، كانت تائهة في الشَّارع، تتعرَّض للاستغلال الجنسي مقابل سندويتش أو قطعة حلوى أو درهم أو درهمين...يختلي بها بعض المارة من المجرَّدين من الإنسانيَّة، وراء سيارة ما أو خلف جدار، لقضاء شهوة عابرة، ثم يتركونها لمصير مُعتم..

تحرَّكت الشرطة عندما أصبحت هذه المريضة تعترض السيَّارات، وتُعيق حركة السَّير؛ فتنام وسط الشَّارع ليلًا، أو تنزع ملابسها كاملة..

وبمجرَّد أن وصلت فاطمة إلى المستشفى؛ فقدت السَّائل "الأمنيوسي" أو ما يُسمَّى بمياه الولادة، فسارع بها الطَّاقم الطبي إلى المصلحة المختصَّة. كان المولود صبيًّا جميلًا انتهى به المطاف في الخيرية بعدما عادت أمُّه إلى المصحَّة النَّفسية للعلاج.

تحسَّنت أحوال فاطمة لحسن الحظِّ بعد ذلك، فخرجت تبحث لها عن أهل أو مأوى، وما إن مرَّت فترة قليلة حتى عادت تسأل عن مولودها تُريد أن تستعيده..

لم تستطع هذه المرأة –رغم المرض والبؤس– أن تنسى بأنَّها أنجبت، ولم تستطع التخلِّي عن شعورها بالأمومة تجاه ابنها، في حين أنَّ الوالد البيولوجي ربَّما يكون أنجب المئات من الأطفال دون أن يدري أو يطرف له جفن، يضع رأسه على الوسادة هانئًا بنومه وبكونه رجلًا؛ لا تُقيِّده الطَّبيعة أو الفزيولوجيا، ولا يُقيِّده المجتمع..

أينـما وُجِد الحب..

"لا أعـرف كيـف يكـون شـعورك عنـدما تكـون لـديك أمٌّ، أو حـتى عندما تكون لديك أخت على الأقلِّ، لا بدَّ أنَّه شعور جيِّد، خصوصًا في الأزمات وأوقات الشدَّة. عندما تحتاج أن يضمَّك شخص ما، ويحزن لحزنك أو يفرح لفرحك؟"

هكـذا قالـت أمينـة ونحـن نتجـاذب أطـراف الحـديث في إحـدى القاعـات قبـل امتحـانات الباكـالوريا بأيام، حيـث المؤسَّسـة خاليـة مـن التَّلاميذ، والشَّمس حارقة في الخارج.

عاشت أمينة مع والدها وزوجته منذ تركتها أمُّها في المهد لتعود إلى بلدها الأصلي الجزائر. لم تستوعب أبدًا هذا النَّقص في حياتها. سألتني عندما علمت أنَّني أهتمُّ بعلم النَّفس:

– هل هناك مَن يتجاوز هذا الأمر؟

– أجبت بحرج شديد: لا، ليس هناك مَن يتجاوز هذا الأمر، ولكن هنـاك مـن يكـون دافعًـا لـه للنَّجـاح والإبـداع، أو العطـاء مـن أجـل التَّعويض.

– قالت: هل يمكن أن أكون أمًّا جيّدة رغم ما يُسبّبه لي هذا الأمر من تعاسة واكتئاب بصفة منتظمة؟!

– قلت لها: ستكونين أمًّا جيّدة بلا شكٍّ، ولن تُؤثّر تعاستك في أبنائك إن سمحتِ بأن يكونوا منفتحين على غيرهم وألّا يقتصروا عليك فقط..

– قالت: وكيف التخلُّص من هذا الجرح العميق؟

– قلتُ لها بأسف شديد: لا يمكنك التخلُّص منه، فهو الآن جوهر شخصيتك والباعث الأصلي لأفعالك كلِّها، وبدل أن تشتكي منه، اعتبريه عطاءً من الله أو درسًا من الحياة؛ جعلك ما أنت عليه من تفانٍ وإخلاصٍ في كلّ شيء...فلولا قصَّتك هذه ما كنتِ أنتِ أنتِ!

ابتسمت أمينة رغم مسحة التَّعاسة في عينيها، وقالت:

– هل أستطيع أن أضمَّك؟

– قلت: نعم، فأنت صديقتي.

– قالت: لا بدَّ أنَّك أسعد النَّاس بإخوتك وعائلتك حتى تكوني على هذا القدر من الرِّضا.

– قلت لها: بل؛ لأنّي أملأ حياتي بكلّ أنواع المحبَّة، فليست المشكلة أنَّنا لم نحض بالحب، ولكنها في عدم قدرتنا على الحبّ بعد ذلك، اسمحي للنَّاس –قدر الإمكان– بأن يدخلوا حياتك وسوف ترين.

كـم مـن الأشـخاص وجـدوا آباءً وإخـوةً في الأصـدقاء، وأهـلًا في الجيران، وعائلةً في العمل!

كـم هنـاك مَـن وجـد أبنـاء في التلاميـذ وأختًـا في خادمـة! بـل وحـتى أنيسًا في حيوان.. الحياة لا تقتصر على شيء واحد فقط، ولا تقف عند أحد، الحياة عطاء وأخذ مستمرينِ..

يقولـون: "أينمـا وجـد الحـب وجـدت الحيـاة"، وكـذلك الحـبُّ "أينمـا وجدت الحياة وُجِد"، فقط دعي الشَّمس تصل إليك..

مخالفات في الطريق

عادت ابنتي للتوِّ من الخارج حيث كانت تكمل دراستها منذ عامين، أعطيتها مفاتيح سيَّارتي الصَّغيرة التي لا يبدو عليها أي من مظاهر الثَّراء أو الغنى، فهي كسيَّارة أيِّ امرأة موظَّفة تحتاج إلى التنقُّل من البيت إلى العمل والذَّهاب إلى السُّوق، ما عدا ذلك؛ أتركها جانبًا حتى يعلوها الغبار أحيانًا، فأطلب من السيِّد بوجمعة، الحارس الطيِّب، أن يُمرِّر عليها قطعة قماش.. المهم في الأمر أنَّ ابنتي اشتكت من المخالفات التي يلحقها بها شرطي المرور –هنا وهناك– زاعمًا أنَّها لم تحترم علامة "قف" أو ما شابه، وتكرَّر الأمر مرَّتين.

تُؤكِّد ابنتي أنَّها وقفت في الإشارة، وأنَّ الشرطي تعسَّف في مهمته في كلتا الحالتين.

قالت مُتأسِّفة: " لقد نفد مصروفي يا ماما، دون أن أُخطئ في أيِّ شيء، فقط؛ لأنَّ شرطيًّا أساء تقديره للأمور. مَن يحمي المواطن في هذه الحالة؟!"

قلت لها مُواسيةً بأنَّني سأُعوِّضها عن خسارتها، ولكنَّني لا أعرف كيف يمكن للمواطن أن يدافع به عن نفسه في هذه الحالة دون أن يتحمَّل مشاقَّ أكثر تكلفة من دفع الغرامة نفسها..

قلت لها أيضًا بأنَّني أُفضِّل ركوب التاكسي عندما أكون بالرِّباط حتى أُوفِّر على نفسي مثل هذه الإزعاجات، فضحكت كثيرًا وقالت: "لو كان كلُّ النَّاس مثلك لما احتاج البلد إلى قوانين!"

رددت عليها مازحةً: "ولو كنت مكانك، لبقيت هناك حيث تدرسين.."

آباء وأبناء

رأيت اليوم أحد الآباء وهو يقلُّ أولاده الصِّغار في سيَّارته، كانوا أمام باب منزلهم يجرُّون "محفظاتهم"، ويُشاكسون بعضهم البعض، وهو يغلق الكراج. كانت لدى الفتاتين ضفائر حُزمت بأشرطة وردية جميلة، بينما كان الولد الأصغر في هيئة مُحايدة تمامًا.

تذكَّرت حينها سنوات الماضي حين كان عليَّ أن أساعد البنات في مشط شعرهنَّ قبل الذَّهاب إلى المدرسة، والتأكُّد من أنهنَّ لم ينسين دفترًا أو كتابًا، ثم الإفطار، وأحيانًا أيضا التَّذكير بدرس الأمس، أو استعراض قصيدة على المائدة، وتحضير وجبات الغذاء..

الآن فقط عرفت كم كان ذلك شاقًّا وممتعًا في نفس الوقت، لكن أمتع منه أن تستعيد حريتك وحياتك من أبنائك عندما يكبرون، يحتجزونها مدَّة طويلة وأنت راضٍ عنهم، ثم يُعيدونها إليك وهم راضون عنك..

طفلة سعيدة

كانت شيماء ونور صديقتي ابنتي الصُّغرى، وكنَّا نُوصلهما أحيانًا في طريقنا إلى البيت بعد المدرسة. كنت ألاحظ اختلافًا كبيرًا في شخصيتيهما، فبينما كانت شيماء تبدو قويَّة وجدِّية وأكبر من سنِّها، كانت الأخرى فتاة رقيقة المشاعر، تبكي لأتفه الأسباب وتضحك لمعظمها.. وغالبًا ما كنت أقلق عندما كانت ابنتي تطلب مِنِّي مرافقة هذه الأخيرة إلى أحد المقاهي أو السِّينما، كنت أرى أنَّهما عاطفيتينِ جدًّا، ويمكن أن يتصرَّفا بشكل طائش أو متهوِّر. أما في وجود شيماء برفقتهما؛ أطمئنُّ إلى أنَّ الأمور ستسير بشكل جيِّد.

رغم أنهنَّ في نفس السنِّ إلَّا أنَّ الاختلاف في تحمُّل المسؤولية ودرجة الجدِّية والوعي كان كبيرًا بينهنَّ، ربَّما عاد ذلك إلى نوع التَّربية، أو الوسط أو الاستعداد الوراثي أو غيره..

ودائمًا ما كنت أتساءل عمَّا هو أفضل لطفل مُراهق؛ أن يكون مسؤولًا وجديًّا أو يتصرَّف حسب سنِّه بشيء من اللا مُبالاة؟

غير أنَّ شيئًا ما كان يزعجني في شخصية شيماء القويَّة، فهي لم تكن تُبْدِي أيَّ نوع من المشاعر، مُتجهِّمة دائمًا ولديها نظرة حادة، لا تُسلِّم كثيرًا وتتحدَّث كالكبار.

استضافتهما ابنتي ذات مرَّة في نهاية الأسبوع، وهناك اكتشفت الجانب الآخر في الأمر.. لقد كانت الفتاة الطَّائشة "البلهاء" أكثر تلقائية وتعبيرًا عن مشاعرها، استطاعت أن تجذب إليها الجميع، وأن تخلق جوًّا مرحًا وسعيدًا بالبيت. تُعانقك في الصَّباح وهي تُسلِّم، وتقهقه كثيرًا وهي تهرب من الكلب، تسألك على المائدة عمَّا إذا كنت تحتاج إلى أن تمدَّ لك شيئًا، وتشكرك كثيرًا إذا قدَّمت لها الحلوى.. كانت رغم حماقتها لطيفةً ومحبوبةً بشكل كبير..

عندما أرادوا الذَّهاب، شعرت بأنَّني سأفتقدها وكأنَّها فرد من الأسرة تمامًا..

قلت في نفسي أخيرًا بأنَّ الطِّفل يجب أن يبقى طفلًا وعفويًّا، وإلَّا فما هو دورنا – نحن الكبار– إذا صار مثاليًّا أو عاقلًا أكثر من اللُّزوم؟

الجروة غيلي

لم أكن أحبُّ تربية الكلاب بالبيت أبدًا حتى جاء ذات يوم أحد الأصدقاء بالجروة "غيلي". كان يريد التخلُّص منها بشكل يضمن سلامتها ورعايتها، وكان من الصَّعب رفضها وهي صغيرة جدًّا وجميلة أيضًا، تنظر إليك بعينينِ واسعتينِ كأنَّها طفل بريء.

اعتادت علينا كثيرًا بحيث لا تقبل بأقلَّ من صحبة حقيقية ونزهة يومية، وإلَّا قلبت نهارك نكدًا وتعبًا بحيث لا يسلم منها أيُّ حذاء أو جورب في المكان، وأحيانًا حتى الأفرشة..

عجزت عن الاعتناء بها الأمس واليوم لسبب من الأسباب؛ فمزَّقت بعض المجلَّات التي كانت موجودة فوق الأريكة، وكذلك إحدى الأوراق النقدية، وعبثت بنظاراتي، ثم جرَّتني من ملابسي وهي تنبح وتقفز عليَّ، ففكرت للحظة وجيزة أنَّه ربما كان الأفضل إهداءها إلى أحد الأصدقاء بنفس الطَّريقة التي أتت بها إليَّ ليعتني بها.

كانت مزعجة بشكل فظيع نهار اليوم، لكنَّه لم يكن خطأها، فقد كانت تريد حظَّها من الاهتمام والعناية، وتبحث عن حصَّتها من

اللَّعب، فلا بُدَّ من الاهتمام بمن نحبُّ، ولا بدَّ من التقيُّد بالمسؤوليات، وأحيانًا أيضًا تقديم بعض التَّضحيات والتَّنازلات..

عاملة المدرسة

اتَّصلت بي صباح اليوم إحدى العاملات بمدرسة ابنتي لتقول لي بنبرة غاضبة وشديدة بأنَّ هذه الأخيرة تغيَّبت عن الحصَّة الأولى، وأنَّ هذا "السُّلوك غير مقبول"، و"يجب ألَّا يتكرَّر!" فهي على موعد من الامتحان في منتصف الشَّهر القادم..

أجبتها بأنَّ التِّلميذ يحقُّ له أن يمرض أو يتعب أو يحتاج إلى بعض الرَّاحة، وكذلك الأسر. فلا بدَّ من تفهُّم بعض الظُّروف الطَّارئة وغير الإرادية، خصوصًا أنهم أنهوا المقرَّر الدِّراسي ويذهبون للمراجعة فقط..

قالت بأنَّ الوقت بعد الدِّراسة يكفي للرَّاحة، ويجب أن نُشعر التِّلميذ بواجباته، وأنَّ عليه ألَّا يتعب حتى يمرَّ الامتحان بسلام!

قلت لها بأنَّني أحترم وجهة نظرها، لكنِّي أتفهَّم أيضًا حاجة ابنتي إلى خفض التوتُّر أحيانًا، وهي تلميذة جيِّدة فوق ذلك.

قالت: "نحن نُريد مصلحتهم فقط وأن يحصلوا على أعلى الدَّرجات.."

أجبتها بأنَّني لا أسعى لأن تكون ابنتي هي الأولى في الفصل أو المدرسة، بل فقط يكفيني أن تعبر المراحل عن استحقاق، ويظل لديها

شغف الدِّراسة وحب المعرفة...التفوُّق بالنِّسبة لي هي أن تحبَّ التعلُّم، وتحترم أساتذتها، وتحب أصدقاءها، لا يهمُّ بعد ذلك إن كانت الأولى أو الثَّانية أو حتى الأخيرة!

سكتت للحظة وقالت بامتعاض واضح: لا عليك، آسفة على الإزعاج وشكرًا! ثم أنهت المكالمة.

حبٌّ وعداءٌ

لا تكون القرابة دائمًا سببًا في الحبِّ والتَّعاون، بل قد تكون أحيانًا أخرى أرضًا خصبة للتنافس والعداء، خصوصًا إذا كانت هذه القرابة "هشَّة" ومبنيَّة على علاقة تبنِّي مثلًا. فغالبًا ما يكون الشَّخص المتبنَّى مدفوعًا بالرَّغبة في تأكيد مكانته؛ إما بمجهود شريف، أو بمحاولة إزاحة مُنافسيه، والتخلُّص منهم؛ ليضمن بقاءً ووجودًا يعتقد أنَّهما ليسا بضروريين أو شرعيين، فلا يُستغنى عنه أبدًا..

أذكر هنا قصَّة ابنة العم رقيَّة مع أختها بالتبنِّي، كانت هذه الأخيرة دائمًا عقبة أمامها، تنتقدها بشدَّة، وتتسابق إلى كلِّ ما يمكن أن تنجزه حتى تسرق الأنظار منها وتحصد الثَّناء وحدها.

كانت تغير منها بشكل كبير، وتغلف غيرتها بمظهر الحبِّ الشَّديد، فكانت دائمًا بالقرب منها ليتسنَّى لها الاطِّلاع على كلِّ ما تفعله، ولا تفوتها فرصة إجهاض مشاريعها أو ترويج الأكاذيب والشَّائعات عنها..

وجدتها مرَّة بعد زواجها بأيَّام في غرفتها تُفتِّش بين أغراضها ولم تقل شيئًا بدافع القرابة والحياء، ثم تبادلت معها أحاديث النِّساء، وذهبت تخبر زوجها بأنَّها كنت تحبُّ شخصًا آخر قبله.

ذات يوم من الأيام، وهما واقفتانِ في ردهة البيت الكبير للعائلة، قدم الزَّوج الجديد يسألهما مازحًا عن موضوع حديثهما، فردَّت عليه: "لقد كانت تسألني عن فلان وأحواله وأين سيبيت اللَّيلة؟!

لم تكن ابنة العم السَّاذجة تعرف أنَّ الغيرة قد تصل بأحدهم إلى أن يسعى في تدمير الآخر وتشتيت عائلته؛ ولا بدَّ أن يكون مريضًا حتى يفعل ذلك!

في نهاية المطاف، أقرَّت لنفسها بأنَّ الأمر يجب أن يتوقَّف عند ذلك الحدِّ، وأن تبتعد عن الأخت المزعومة التي ما فتئت تُسمِّم حياة أقاربها لسبب واحد؛ هو عجزها عن تقبُّل الحياة كما هي، والسَّعي في النَّجاح دون مقارنة مع الآخرين، أو النَّظر الى ما جاؤوا به إلى الدُّنيا.

فقد تختلف نقطة الانطلاق بيننا لكن الوصول إلى تحقيق الذَّات هو الهدف في النِّهاية، سواء كان ذلك مُبكِّرًا جدًّا أو مُتأخِّرًا قليلًا..

أمل

غريب! كيف نأتي إلى هذا العالم بشعور زائل من الطُّمأنينة والأمان، يبدأ منذ اللَّحظة الأولى للإخصاب في رحم الأمهات، حيث الدِّفء والغذاء والسِّباحة في ذلك السَّائل اللَّزج الشفَّاف الذي يمنع عنا الصَّدمات؟!

لكن من يمنعها عنك بعد ذلك حين تخرج إلى الحياة الحقيقية؟ تضمُّنا أذرع أمَّهاتنا، ويُغلِّفنا حبهنَّ طويلًا، لكنهنَّ يتعبن في النِّهاية..

يضمُّنا الأصدقاء ثم يرحلون لسبب أو لآخر؛ لأنَّهم في النِّهاية بشر مثلنا تحكمهم قوانين الحياة..

فمن يمنع عنك إذن أحاسيس الغربة أو ضربات القدر الموجعة أو أحزان الفشل المرهقة؟! قدرتك فقط على التحمُّل، واعتمادك على نفسك في إيجاد هدف نبيل لحياتك– هما ما يجعلانِ الحياة جديرة بأن تُعاش.

قدرتك بأن تجمع شتات نفسك وقلبك قطعة قطعة، تُعيد ترتيبهما ووضع لصاق عليهما كما نفعل تمامًا عندما تنكسر إحدى القطع الأثرية الثَّمينة..

قدرتك على أن تجعل من نزيف مشاعرك سقاية لحديقة خلفية تنبت منها أزهارٌ ووروداً، تُعطي بها أملًا لغيرك ممَّن يحزنون..

لا زلت أذكر تلك الصَّديقة التي توفَّت والدتها ونحن على أعتاب الباكالوريا، وقفت عاجزة عن مُواساتها، بدت لي كل الكلمات قاصرة وحتى الأفعال.. جملة واحدة فقط كانت تستحقُّ أن تُقال: "كوني قويَّة! من أجلها، من أجل ذكراها، من أجلك أيضًا؛ لأنَّك تستحقِّين الأفضل!"

لم أقلها آنذاك، لكنَّها جعلتني أؤمن بأنَّ الكلمات التي لم تقل؛ لا بدَّ أن تُقال يومًا ما، من أجل شخص ما، في مكان ما..

الحاجة فاطمة

جلسنا جميعًا على مائدة العشاء عند أحد الأصدقاء، كان رجلًا مضيافًا يحبُّ إقامة الحفلات والمأدبات كثيرًا، كان سياسيًّا ماهرًا في شبابه، ورجلَ أعمالٍ ناجحًا جدًّا، بالإضافة إلى ذلك قوي البنية والشَّخصية رغم تقدُّمه في السنِّ. كنت أُكنُّ له الاحترام الواجب للأصدقاء ولمن هم في سنٍّ مُعيَّنة أيضًا.

لم أكن أعرف زوجته الأولى، ولم أكن التقيتها من قبل خلال الزِّيارات السَّابقة، لكنَّها جاءت تُسلِّم هذه المرَّة؛ لأنَّ العشاء كان في جناح ابنها البِكْر.

كانت مسنَّة لكنَّها ما زالت مُستقلَّة ذات ذكاء وإحساس، استغلَّت وجودها بجانبي وارتفاع أصوات الحاضرين لتُفشي بعض أسرارها، قالت بأنَّ الحاج أهملها كثيرًا وأضحى لا يخرج من جناح زوجته الثَّانية صغيرة السنِّ، وأنَّها "ضيَّعت سنوات العمر في خدمته واستقبال ضيوفه"، قالت أيضًا بأنَّها تحسُّ "بالخزي والعار" أمام كلِّ من عرفها من قبل، حتى إنَّه قد يكون منهم من شمت بها!

"جعلها أضحوكة للغير"، و"تنكر للعشرة الطويلة"، "ليته فقط لم يمل كلَّ الميل إلى الأخرى"، "لو أنَّه ترك لها الأمر والنَّهي في بيتها على الأقل لهانَ الأمر ولم تشعر بالمرارة كثيرًا.. حتى إنَّ الأخرى هي التي أصبحت مستودع سرِّه وماله!"

قالت الشَّيء الكثير حتى انكسرت صورة الحاج سعيد في ذهني وقلَّ احترامي له، عز عليَّ أن أرى امرأة في ذلك السنِّ تذلُّ وتتجرَّع الألم والهوان، قالت أخيرًا: إنَّها تودُّ الذَّهاب بعيدًا للعيش عند ابنتها.

آنذاك قلتُ لها: "لا!"

"كيف تتركين بيتك الذي عشت فيه كلَّ هذا العمر؟ كيف ترضين بهجر كلِّ ما بنيته وتبحثين عن مواساة ضئيلة لدى ابنتك وزوجها؟"

قلت لها: بأنَّ الموت مائة مرَّة في اليوم بسبب غيرة زوجية أرحم بكثير من الموت بسبب الغربة وانعدام الهدف في الحياة والشُّعور بالضآلة.

"فإذا تخلَّى عنك هذا الزَّوج الجاحد؛ فهناك أحفادك وحديقة بيتك ومعارفك الأوفياء وذكرياتك الطيِّبة، وهواء البيئة التي عشت فيها، وطبخك وسُوقك وخادماتك...لا أعتقد أنَّ كلَّ هذا بالشَّيء الهيِّن، فلا ترحلي أبدًا."

ابتسمت وأحسست برابط قوي تجاهها فقلت لها: "ليتك تُشرفينني بزيارة في بيتي يومًا ما"، أجابت: "لا، أنت من تأت، فأنا لا أترك بيتي وأحفادي!"

أحببتها وسألت عنها في كلِّ مرة ألتقي بابنها أو زوجها، لم ترحل من بيتها أخيرًا.

من الماضي.. قلق

انتابني شعور كبير بالقلق، كان الظَّلام دامسًا واللَّيل طويلًا جدًّا، والغرفة ضيّقة ليست بها نوافذ. الصَّمت مُطبق بالخارج كما هو الحال في البادية دائمًا، ما عدا بعض أصوات الحيوان التي زادتني غربة.

أحسست بالوحدة والضِّيق، متى سيحلُّ الصَّباح؟ اللَّعنة على هذه الأماكن الضيّقة والغرف الصَّغيرة التي تُشبه الجحور والأوكار...كيف يستطيعون النَّوم هكذا، لا يرون ولو بصيصًا من نور؟ ماذا لو مرَّ فوق رأسي صرصور أو فأر أو عنكبوت.. أو حتى أفعى؟ انكمشت على نفسي، وغطَّيت رأسي بالكامل حتى أحمي جسدي ممَّا يُوهمني به ذهني..

بدأت أُفكِّر في كلِّ شيء ولا شيء، وأُمنِّي النَّفس بقُرْب الصَّباح... لم أعرف كم مرَّ من الوقت حين استغرقني النَّوم، ولا كم ساعة نمت حين سمعت أصوات أهل البيت وهم يتحدَّثون. كانت الشَّمس قد سطعت والكل قد أفاق ماعدا أنا، ثم سمعت إحداهنَّ تقول لأمِّي: "هؤلاء بنات المدينة كالدَّجاج الرُّومي لا يتحمَّلن أيَّ تعب أو مجهود، صفراوات يقتلهنَّ الهزال."

لا أعرف لماذا كانت أمِّي تصرُّ على أن نقضي العطلة هناك عند أهلها في البادية، لقد كان رعبًا حقيقيًّا في بعض الأحيان.

قمت وأنا لست على ما يرام، وعلى جلدي بقع حمراء تركتها لسعات إحدى الحشرات، والنَّوم ما زال يُغالبني. فقالت أمِّي وهي مبتسمة: "أسرعي بتجهيز نفسك، سنذهب اليوم في رحلة طويلة"، لتضيف بعد ذلك وهي في سعادة بالغة: "لكن لا تقلقي، فعندي لك مفاجأة سارَّة!" ثم صمتت قليلًا، وقالت: "ستركبين الحمار!"

منتصف الطَّريق

لماذا اختار السيِّد إدريس أن ينهي مساره المهني قبل الأوان ويذهب لاستغلال رقعة زراعية مُتواضعة بإحدى المناطق المجاورة، تخلَّى عن الامتيازات التي يمنحها له عمله من سكن وتعويضات وفرص للترقّي والالتقاء بالأصدقاء؟!

كان يبدو ذلك كنوع من الرَّفض أو التمرُّد أو اليأس، فقد فشل أبناؤه كلُّهم في إيجاد عمل رغم الشَّهادات الجامعيَّة، كما فشلت ابنته في زواجها الذي انتهى بالطَّلاق.. أما عن زوجته فقد كان زواجًا تقليديًّا مع فارق كبير في المستوى الثَّقافي والتَّعليمي، ولم يكن هناك تواصل حقيقي، أو تفاهم، أو مشاركة أو مودَّة عميقة..

بدا اختياره كالهروب، كمن ظلَّ ينتظر الانعتاق من الأَسْر، كشخصٍ أراد أن يُرسل رسالة صامتة يقول فيها بأنَّه لا يريد البقاء مع أشخاص يعتمدون عليه في كلِّ شيء، وأنَّه آنَ الأوان لهم بأن يشقُّوا طريقهم من دونه..

أتت زوجته تُخبرني بالأمر ذات يوم، مسحت دموعها وهي تقول بأنَّ حياتهم ستتغيَّر جذريًّا بعد اختياره هذا، وتساءلت عمَّا يمكنه أن تفعل،

وما هو مصيرها؟! فهي لا تريد العيش في البادية حيث اتَّخذ مسكنًا متواضعًا جدًّا، وأولادها لا يريدون ذلك أيضًا.

كان الأمر كلُّه خاطئًا، فكيف يسمح أحدهم لنفسه بأن يظلَّ تحت جلباب أبيه حتى بعد الإجازة؟! وكيف تظلُّ امرأة هكذا دون أن تتعلَّم شيئًا تستقلُّ به لذاتها وتكتفي به إن حصل مكروه وتنحَّى عنها هذا الزَّوج؟! كيف يمكن أن يظلَّ الإنسان بلا حراك ينتظر من آخر أن يتحمَّل عنه كلَّ شيء؟!

قرَّر ذلك الأب أخيرًا أن يقتسم أجرة تقاعده النِّسبي معهم، وذهبت البنت لتعمل في إحدى المدن الكبرى، والتحق أحد الأولاد به ليُساعده في زراعة بدائية، بينما بقي الآخر مع أمِّه، فاكتريا منزلًا يعيشان فيه.

كان وضعًا مؤلمًا جدًّا.. أن تتفرَّق تلك الأسرة بعد سنين من العيش معًا، ربَّما كان يجدر بالسيِّد إدريس أن يرى طبيبًا نفسيًّا، أو يطلب المساعدة أو المشورة من أصدقائه وعائلته قبل أن يتَّخذ قرارًا مصيريًّا.

ربَّما كان عليه أن يستمرَّ في تضحياته؛ لأنَّه ليس من المقبول أبدًا أن تترك مُرافقيك في منتصف الطَّريق؛ فإما أن تُوصلهم إلى وجهتهم أو تضيع معهم.

عندما تكون مسؤولًا عن أسرتك فأنت أشبه بقائد السَّفينة، لا تتركها حتى ينجو الجميع أو تغرق معها..

مغامرة

"النَّاس أشرار، فلا تأخذي بالمخاطرة أبدًا!" عاشت ريهام ابنة أحد الأصدقاء على هذا المبدأ، وظلَّت عليه مدَّة طويلة حتى شعرت بالعزلة والتَّعاسة، وانطفأ اهتمامها بالحياة.

كان شعورها الدَّاخلي يدفعها نحو الآخرين ونحو المغامرة، لكنَّ صوت أمِّها كان أقوى، ينتصر دائمًا، فكلَّما حاولت التقرُّب من أحدهم تجد نفسها هاربة إلى الوراء، يسكنها الخوف من رأسها حتى قدميها، لا تستطيع أحيانًا أن ترشد تائهًا في الطَّريق؛ لأنَّه قد يكون "سيكوباتيًّا أو قاتل نساء بالتَّسلسل!" كما دأبت تقول لها أمُّها.

تعبت كثيرًا، وذهبت تبحث عن عزاء في العمل الخيري رغم صغر سنِّها، ثم تساءلت هل الحياة لا تستحقُّ المغامرة؟ هل يعيش فعلًا مَن يعيش بخوف وحذر دائمينِ؟ هل نأتي إلى الدُّنيا وهمنا الوحيد هو البقاء كيفما كان نوع هذا البقاء؟! حتى لو كان عيشًا في تعاسة أو حياة في دونيَّة وانحطاط؟!

إذا كان كل النَّاس أشرارًا، فنحن أيضًا مثلهم! لماذا قد نكون نحن الاستثناء بالذَّات؟ هل وُلدنا ملائكة مثلًا؟!

وإذا كنَّا أخيارًا، فالأحرى أنَّ الآخرين هم أيضًا كذلك! مع بعض الاستثناءات دائمًا طبعًا!

قرَّرت أخيرًا أن تدخل المغامرة وتحب الحياة والنَّاس، وأدركت أنَّها لم تعشِ من قبل أبدًا.

حب في المقهى

امرأتانِ تجلسان في مقهى رديء بحيٍّ من أحياء الدَّار البيضاء، وتحديدًا في بورنازيل، ترتدي إحداهنَّ جلبابًا بسيطًا وتضع وشاحًا على رأسها، والأخرى فستانًا أزرق طويلًا إلى الكعبين كتلك الفساتين الموجودة بكثرة في أسواق البادية، تضع أيضًا خرقة على شعرها، لكن تبدو منه خصلات سوداء، مظهرها يوحي بشيء من الرُّومانسية، فقد ذكَّرتني بفاتن حمامة في دور الفتاة الفقيرة؛ جاءت تسأل عن حبيبها الذي ذهب للتَّجنيد ولم يعد يسأل عنها، أخبرها أحدهم بأنَّه سيحضر بعد قليل إلى الثكنة، فجلست تنتظر هناك مع قريبتها التي رافقتها حتى لا يشكَّ أحد في البيت بأمرها.

كان قد وعدها بالزَّواج، ووثقت به كلَّ الثِّقة، فكانت ترافقه إلى بيته وتعطيه كلَّ ما جمعته من مال ليستعين به في دراسته بالجامعة قبل سنوات. كانت تبيع بيض دجاجاتها واللَّبن أحيانًا، وتُراكم الدَّراهم الواحد فوق الآخر حتى يعود ذلك الحبيب الغائب لتُعطيه مصروفها ثم تقول لأمِّها بأنَّها وضعت المال عند تاجر الذَّهب حتى تستكمل ثمن حلية من الحلي.

كان يقول لها بأنَّه سيعمل قريبًا ثم يعود ويتزوَّجها ويشتري لها كلَّ ما اشتهت نفسها من ذهب وحلي وفساتين، تُسكت بها أفواه الجميع! لكنَّه التقى بأخرى!

انتظرت طويلًا في المقهى، وأخيرًا لاح لها من بعيد، فدقَّ قلبها بشدَّة وكاد يغمى عليها من التوتُّر.

سلَّم وجلس مُتجهِّمًا، قال بأنَّ عليها أن تنسى الماضي وتُفكِّر في مستقبلها مع شخص آخر. نزلت دموعها بصمت، وظلَّ كأس عصير البرتقال أمامها، لم ترشف منه رشفة واحدة، ثم نادى على "النَّادل"، وأدَّى ثمن المشروبات، وترك له البقشيش وانصرف.

عرفتها لأنَّها من بلدة أمي، لم تتزوَّج إلى الآن، لكنَّها ليست حزينة، فقد مرَّ على هذا الحادث عقدان أو أكثر من الزمان، بينما تزوَّج هو ولم يُرزق بأطفال.

جنون اللَّحظات

كم هي الحياة جميلة حينما نأخذها بعفويَّة وبساطة، حين نأخذ الكلمات على محملها الظَّاهر فقط، ولا نبحث في معانيها البعيدة ولا وراء السُّطور، عندما نعيش اللَّحظة فقط، ولا نُحاول سبر أغوار المستقبل البعيد.

كم يفسد علينا التَّفكير سعادتنا عندما يُبقينا يقظين، واعين بكلِّ شيء، فلا يترك لنا فرصة للحلم أو الهروب من الواقع.

كم يفسد علينا أيضًا الخوف من الخيبات من فرص ذهبية؟!

تعلَّمنا ونحن صغار بأنَّ علينا أن نحتاط من البرد، وأن تطأ أقدامنا الأرض بحذر، وأن نُفكِّر مليًّا قبل أن نتكلَّم..

لم نتعلَّم أن ندخل المغامرة، نغامر أحيانًا ونحتاط أخرى، وألَّا نتحسَّر أبدًا.

أن ندخل السِّباقات الخطيرة، وتسلُّق الجبال الشَّاهقة، والقفز بالمظلَّات.

أن نستشعر جنون اللَّحظات القويَّة، والانفعالات الشَّديدة التي تضيف للحياة طعمًا خاصًّا، وتجعلها مُميَّزة وجميلة بشكل استثنائي..

امرأة غير عادية

كانت أُمِّي تستقبل إخوتي بالأحضان، وتضع قبلات على خدودهم، وهم يعتقدون أنَّ ذلك بدافع الحنان فقط، لكنَّها كانت أذكى بكثير، فقد كانت تشمُّ أنفاسهم ورائحة ملابسهم لتعرف إنْ كانوا يُدخِّنون بالخارج، أو يشربون منكرًا حتى تتدخَّل إذا تطلَّب الأمر، فقد كان همها الوحيد هو أن يتفوَّق الجميع في دراسته ويستقل بذاته دون خسائر في الطَّريق.

غرس فيها والدها حبَّ العلم والمعرفة، وكان قدوتها ومثالها الأعلى كرجل تعلَّم في الزَّوايا والكتاتيب، وأراد لابنته الصُّغرى أن تكون كذلك.

كبرت في بيئة بسيطة جدًّا، وتفتَّح عقلها على الدِّراسة، فأقبلت عليها بنَهم شديد كمَّن كان عطشًا فارتوى، ولم تعد تؤمن بأنَّ هناك أجمل وأمتع منها.

حتى الثَّراء والبحث عن المال لا يغريها بقدر ما تغريها الدَّرجات المدرسية والاستحقاقات العلمية.

هي فعلًا امرأة غير عادية، الوحيدة التي حصلت على شواهد عليا في قريتها، وظلَّت مدَّة طويلة تذهب إلى البئر لتأتي بالماء وتُوقد الكانون لطهي الخبز، وترعى الأغنام وهي تحمل كتابًا..

المُحلِّل النَّفسي

كانت تُدخِّن السَّجائر الواحدة تلو الأخرى دون انقطاع، عضلات وجهها مُتقلِّصة، وهالات سوداء كبيرة تحت أعينها، سألها المحلِّل النَّفسي عن موضوع زيارتها فأجابته بأنَّها لا تنام، تظلُّ مشغولة البال طوال اللَّيل، ولا يغمض لها جفن دون أن تعرف السَّبب.

قال لها: "ربَّما طرأت مشاكل في حياتك مُؤخَّرًا"، فأجابت بالنَّفي.

سأل: هل زرت الطَّبيب العام أولًا وأجريت تحاليل؟

قالت: نعم، وليس هناك أي خلل عضوي.

قدَّم لها ورقة وقال: تفضَّلي واكتبي أيَّ شيء يخطر ببالك.

فسألت: أي شيء؟

أجاب: نعم، أي شيء. ولو كان كلامًا مُتقطِّعًا، ولو كلمات بدون معنى.

فكَّرت قليلًا ثم كتبت: زوجة أبي، شيخوخة، أختي صفاء، زوجي، بلدتي، أمي، البيت الكبير، أعمام، عائلة، طفلة، غربة، حزن، دموع، كبار، وحدة، خوف، قلق.

قال لها: حدِّثيني الآن عن كلِّ كلمة كتبتها وما توحي به لك.

حينها أسردت القول، وبدأت تحكي قصَّة حياتها دون ترتيب، تبدأ من الآخر وتعود إلى البداية، ثم ترجع إلى الحاضر، وتنتهي بالماضي...

استطاعت أن تقول ما لم تقله لنفسها يومًا ما، وانهمرت دموعها حينًا وضحكت حينًا آخر.. كانت في مواجهة مع آلامها ندًّا لندٍّ.

فجأةً قال لها: "علينا أن نتوقَّف هنا حتى لا يضيع منَّا ما حققناه اليوم، فقد قمت بعمل رائع، وضعت أصبعك على مصدر الألم الحقيقي، وبعدها سنتابع لمعرفة الأسباب الأخرى واحدة واحدة".

تنفَّست الصعداء، وشعرت بارتياح كبير، ونامت تلك اللَّيلة نومًا مريحًا، كانت قد فقدت أمَّها في صغرها، وانتقلت الى بيت جدِّها حيث يعيش الأعمام والعمَّات؛ لأنَّ أباها تزوَّج امرأة أخرى، في حين بقيت أختها صفاء معه في بيته؛ لأنَّها كانت لا تزال صغيرة جدًّا.

صدقٌ ومشاعر

كـان الكـلُّ يسـتقبلها بـين الحـين والآخـر بـنفس السُّـؤال في قاعـة الأساتذة: "متى تستدعينا إلى عُرسك، هل من شخص في الأفق؟! لقد اشتقنا الى الأفراح والمسرَّات". وفي كلِّ مرة تجيب وهي ضاحكة: "ليس بعد، ليس بعد".

كانت "دلوعة" زميلاتها للُطفها وحلو معشرها.

صارحتنا يومًا ونحن في طريقنا إلى أقسامنا المتجاورة: هل تعرفن ماذا يحصل معي في كلِّ مرَّة؟

قالت إحداهنَّ: ماذا يحصل لك؟

قالـت: في كـلِّ مرة ألتقي شخصًـا يُناسـب مستواي الثَّقافي، وأجـده مُتنوِّرًا وأنيقًـا ومُهـذَّبًا، يتَّفق أنَّه لا يرغب في الزَّواج أو الالتزام، وعنـدما يأتيني "بابا" بعريس يكون هذا الأخير جادًّا وراغبًا في تكوين أسرة لكن لا يُناسب أفكاري أو مستوى تعليمي! فماذا أفعل؟!

بالأمس قدم شخص إلى بيتنا، وقال عنه أبي بأنَّه رجل ممتاز، يُتاجر في المواد الغذائية، ويُحافظ على الصَّلاة، وأخلاقه طيِّبة، لكنَّني عندما تحدَّثت معه شعرت بضيق شديد، يسألني طوال الوقت عن أكلتي المفضَّلة، وعن نوع اللِّباس الذي أحبُّ أن أرتديه، ونوع الأغاني التي

أسمع، ولوني المفضل.. و.. و.. ثم يقول لي في كلِّ مرَّة: سأشتري لك ذلك، سأشتري لك ذلك... وهكذا في حديث فارغ ومملٍّ، وحوار ذكَّرني بلعبة الحروف والكلمات التي كنَّا نلعبها صغارًا.

ضحكنا كثيرًا وقالت إحداهنَّ: "على الأقلِّ فيه نوع من الصِّدق، وسوف يتعلَّم مع الوقت، ستجعلين أباك يندم على تعليمك حين تبقين هكذا طويلًا بدون عريس!"، فقهقه الجميع.

قالت: لكنَّه كان سيندم أكثر لو رآني امرأة تعيسة لا أملك قراراتي، وأُفوِّض كلَّ أموري وأمور أبنائي لرجل قد لا يكون بالضَّرورة جيدًا!

قالت أخرى: ألم تكن أمَّهاتنا أكثر حظًّا منَّا؟

أجابت: لم تكن أمَّهاتنا أكثر حظًّا منَّا، لقد كنَّ أكثر صبرًا فقط، وأكثر تحمُّلًا، كنَّ ينتظرن إنجاب الذُّكور حتى يستقوين بهم، لا تكون لإحداهنَّ كلمة في بيتها أو سلطة حتى يأتي ابنها للحياة ليُحييها ويُعطيها مكانةً وقوةً!

أمَّا إذا لم تنجب، فما كان عليها سوى أن تُوضع في الرفِّ وتبكي حظَّها العاثر، أو تشعر بالامتنان إذا أبقى عليها ذلك الزَّوج، ثم ترضى بعد ذلك بأن تتنازل عن عشِّها لأخرى، وتعيش في الظلِّ. هكذا كانت أمَّهاتنا أو جدَّاتنا في السَّابق! كلَّا، لن يندم أبي على تعليمي أبدًا!

لحظة انكسار ...

كانت السَّاعة تُقارب الواحدة بعد الزَّوال، وكان عليها أن تلتحق بعد نصف ساعة بمؤسَّستها لتعمل من الثَّانية إلى السَّادسة، لم يكن آنذاك عمل بالتَّوقيت المستمر في المدارس.

تنتظر كلَّ يوم قدوم السَّعدية لتُرافق الابن المريض حتى تتمكَّن هي من الذَّهاب إلى العمل.

مرَّت الدَّقائق ولم تظهر السَّعدية، اتَّصلت بها على الهاتف الخلوي ولم تُجب. بدأ الابن بالصُّراخ، وتكسير لُعَبِه كما يفعل دائمًا عندما يكون مُتوتِّرًا.

لا يُوجد أيٌّ من أقاربها في الجوار، ولا حتى أصدقاء يمكن أن تُودعه لديهم بضع ساعات ريثما تعود.

هل تتَّصل بمدير المدرسة لتُخبره بأنَّها ستغيب؟ لكن ماذا تفعل إذا تكرَّر الأمر؟

هل تحمله معها وتتركه داخل السيَّارة في ساحة المدرسة؟ لن يتحمَّل البقاء داخلها أربع ساعات بأكملها..

نظرت إليه وهي حائرة، كان لديه شكل من أشكال التوحُّد، يُعبِّر بعنف عن كلِّ ما يريد ويرمي أحيانًا بالأشياء من النَّافذة، وقد يسقط منها إذا لم ينتبه، وقد يفتح الباب ويخرج دونما وجهة مُحدَّدة أو يلعب بشيء حاد!

ارتدت ملابسها واستعدَّت للخروج، أخذته من يده ووضعته في السيَّارة، ظلَّت تتساءل في الطَّريق عمَّا إذا كان مدير المدرسة سيقبل بأن تُجلسه بالخلف في قسمها، ثم سقطت دمعتان من عينيها، شعرت بعجز كبير، لَيْتهم كانوا يُهيؤون حضانة داخل كلِّ مؤسسة لأبناء وبنات العاملات! كانوا سيُوفِّرون عليهنَّ جهدًا حقيقيًّا، ويُحقِّقون لهنَّ راحة نفسيَّة تُساعدهن على العمل بشكل أفضل..

وصلت إلى باب المؤسَّسة، ورأتها إحدى عاملات النَّظافة فجاءت مهرولة نحوها: "هل تحتاجين إلى مساعدة؟ هل آخذ عنك الطِّفل حتى وقت الخروج؟ فبيتي هنا بالدَّاخل كما تعلمين، وتستطيعين رؤيته بين الحصَّة والأخرى." شكرتها كثيرًا وهي تمسح دموعًا امتزجت فيها كل المشاعر المتناقضة من ألم، وحب، وعرفان وانكسار..

فكَّرت كم هو جميل أن تتشارك حِمْلك مع أُناس آخرين، فالقشَّة التي تقصم ظهر البعير قد تكون أيضًا هي مَن تجعله يقف مُجدَّدًا إذا أزلتها عنه! فكَّرت أيضًا بأنَّ أيَّ مساعدة كيفما كان حجمها في

الأزمات قد تُعطيك نفسًا جديدًا للاستمرار، وتُزيح عنك مشاعر اليأس والعجز! ثم فكَّرت أخيرًا كم هم رحماء هؤلاء النَّاس البُسطاء الذين فهموا الحياة جيِّدًا، وعرفوا أنَّها لا تستقيم دون تكافل أو تضامن!

رسالة نصية

اتَّصلت برقم مجهول فأجبتها: مَن معي؟

قالت: فوزية، ألم تتعرَّفي على صوتي؟

سكت لحظة وقلت: آه، نعم، بالطَّبع أنت.

قالت: يبدو أنَّ رقم هاتفي لم يعد في قائمة الاتِّصال لديك.

أجبت: بالفعل، فقد ضاعت منِّي بعض الأرقام، كيف الأحوال؟

دار حديث قصير بيننا ثم ودَّعت وأنهت المكالمة.

كنَّا قد تعارفنا منذ مدَّة، وتبادلنا الأحاديث واللِّقاءات حتى ظننت أنَّنا أصدقاء فأرسلت لها يومًا رسالة نصيَّة عبر الهاتف بأسلوب عفوي بسيط أسألها فيها عن أحوالها وعن صغيرها وعملها، لكنَّها فاجأتني بردٍّ في منتهى الرَّسميات تقول فيه": أنا الدُّكتورة فلانة، أشكركم على اهتمامكم سيِّدتي، وأتمنَّى أن تكونوا بخير، تحيَّاتي."

ظننت أولًا أنَّني أسأت الفهم لكنِّي تذكَّرت بأنَّها قالت يومًا أنَّها لا تحبُّ رفع الكلفة مع أيٍّ كان، كما تحبُّ أن يناديها النَّاس بلقبها كاملًا، وأن يحترموا المسافات معها. فمسحت رقمها من هاتفي حتى لا أُكرِّر الخطأ نفسه، ولأنَّني أحبُّ أن أبقى على سجيَّتي معها.

لكن يبدو من مكالمتها الأخيرة أنَّها تراجعت عن وهم الألقاب، وأدركت أن هذه الأخيرة للغرباء فقط، وأنَّها لا تزن الكثير في العلاقات الإنسانية المحضة، فأسعد الأوقات حين تكون على طبيعتك مع ذويك ومُقرَّبيك، ويُحِبُّونك لا لشيء إلَّا لذاتك فقط.

نفرتيتي

"أمُّك اللي عليها سمت اسمك، وأنا ابتليت بيك"ـ هكذا كان يُردِّد الأستاذ مراد على مسامع زوجته يوميًّا، فقد كانت تحبُّ الوقوف على التَّفاصيل الدَّقيقة، وتطلب منه الشَّفافية الكاملة في كلِّ شيء، فلم تكن هي المرأة التي تنطلي عليها الحِيَل أو الأكاذيب، ولم تكن المرأة التي تستسلم أبدًا.

سألته ذات مرَّة إن كان سعيدًا معها، فقال لها بكلِّ صراحة: "أنا سعيد طالما أنت مُهتمَّة بشكلك ومطبخك، وتساعدين في مصروف البيت". فضحكت وقالت: "فقط، صراحتك هذه تستحقُّ الإعجاب، وأنا لولا شعرك الأشقر وعيناك الزرقاوان ما كنت لأتزوَّج بك!"

كان أشقر وأبله، وكانت هي سمراء حادَّة الذَّكاء، يُمازحونها في العمل ويقولون لها: "من أين لك بهذا الحظِّ حتى تتزوَّجي رجلًا يُشبه بيل كلينتون كأنَّه شقيقه التَّوأم؟!" فتردُّ عليهم: "بل هو المحظوظ الذي تزوَّج بالملكة نفرتيتي". وكنَّا نضحك كثيرًا على ذلك.

ظلَّت على تلك الحال من الاستقرار والسَّعادة الزوجية حتى اكتشفت ذات يوم أنَّه يُواعد إحدى جاراتها؛ فثارت عليه ثورة لم يكن له

عهد بها، وطلبت منه أن يرحل، فتوسَّل واعتذر وطلب الغفران بكلِّ ما تبقى له من أمل ورجاء. ثم قبلت بشرط أن يُصارحها بالأمر، فقال لها: "تشعرينني دائمًا بالنَّقص، وأنَّني ندٌّ لك أو أقل، بينما هي تجعلني أشعر أنَّني أقوى". فقالت له: "أيُّها الغبي، الشُّعور بالقوَّة هو أن تحمي زوجتك وأبناءك، وتكون درعًا لهم في الحياة، وليس هو القدرة على التنصُّل من المسؤولية وعدم الالتزام بالعهود والوفاء!"

كان مبدأ الصَّراحة والصِّدق يطبع علاقتهما دائمًا، فكانا يتجاوزان بذلك كلَّ الصِّعاب، ويزداد تماسك زواجهما يومًا بعد يوم. كنت معجبة جدًّا بها فقد ألهمتني كثيرًا..

حبٌّ ومَوْتٌ

التقيت مع زوجة خالي، التي فقدت ابنها الشَّاب منذ أشهر، اعتادت أن تُخفي مشاعر الحزن الذي يعصرها كي تُجاري فرح الآخرين ونسيانهم، وإلَّا فما العمل؟ هل يمكنك أن تطلب من النَّاس أن يحزنوا لحزنك مدَّة طويلة؟ هل يمكنك أن تشعرهم بالذَّنب أو التَّقصير في حقِّك إذا نسوا بأنَّك تتألَّم؟ "فلا بُدَّ للحياة أن تستمرَّ"، هكذا علَّقت على الأمر برضا وإيمان.

كان الجميع مبتهجًا في تلك المناسبة العائلية، وكانت هناك أيضًا ككلِّ النَّاس الكرماء الذين يقومون بالواجب ويبتسمون وهم مذبوحون من الألم- يبذلون جهدًا ليُشاركوا النَّاس أفراحهم وهم موتى من الدَّاخل، يلبسون أجمل الثِّياب ليُظهروا لك الفرح وهم يبكون بصمتٍ.

لم أستطع أن أغفل عن وجودها أو أنسى بأنَّ أمًّا مكلومة بيننا، فظللت أنظر إليها من حين لآخر، وكانت لا تشعر بذلك. كانت بين ابتسامة وابتسامة تُخفي انقباض وجهها، أو تمسح دمعة خفيَّة. ثم انتقلت للجلوس بجانبها، وسألتها عن أحوالها، قالت بأسى بالغ: "ابني يعيش معي كلَّ يوم، أراه يمشي ويجيء في أرجاء البيت كأنَّه لم يمت، لا أغمض

عيناي كلَّ ليلة حتى أتمثل ذلك الموقف الذي سقط فيه بين يدي بدون حراك. ابني معي في كلِّ لحظة."

كم أنت عظيمة أيتها الأمُّ الصَّابرة، وكم أنت وفيَّة لذكر أبنائك وكم أنت مضحيَّة! حبُّك لا يعلوه حبٌّ بشريٌّ كيفما كان، وعشقك أبديٌّ لا يفنيه موت أو نسيان!

ذكرت لها قصص مَن أعرفهم من النَّاس الذين فقدوا أبناءهم حتى أُواسيها قليلًا، وقلت لها: ربَّما لو التقيت بمن يعيش مثل مأساتك لهوَّنتم على بعضكم البعض، فمن أكثر الوسائل نجاعة في علاج النُّفوس أن تلتقي بمن يعيش مثل معاناتك، وتحس بأنَّك لست وحدك، وأنَّ هناك مَن يفهمك ويعرف ما يُخالجك، وأنَّ القدر لم يخترك وحدك، بل اختار الكثير من أمثالك..

سحر اللَّحظة

كان ينتظر بلهفة قدوم الفتاة التي تعرَّف عليها في الفيسبوك، تصوَّرها جميلة ورقيقة ناعمة كما تظهر على صورة البروفايل، وتخيَّل كم سيكون الحديث شيّقًا واللِّقاء جميلًا. كان منطويًا على نفسه، لا يستطيع مواعدة فتاة سوى عن بُعد، وراء شاشة هاتفه. فقد كان خجولًا جدًّا لدرجة أنَّه يقضي ساعات فراغه أحيانًا في الشُّرب، وليس لديه أصدقاء.

عندما أرسلت له بشرى دعوة، قَبِل بسرعة، وتخيَّل أجمل القصص العاطفيَّة معها، كان قارئًا مُتأمِّلًا، يحبُّ الفنون، ويُفضِّل الهدوء والعلاقات القليلة.

التقيا أخيرًا في أحد المقاهي، وكان قد أعدَّ خطابًا في نفسه لكي يبدأ به الحديث معها، فقد ظنَّ أنَّها ستكون مُتوتِّرة مثله، وتلزم الصَّمت.

قدمت بشرى أخيرًا، وبلهجة مبتذلة أخبرته كم كانت الطَّريق شاقَّة، خاصَّة أنَّ الحذاء الضيِّق "قتلها" وأنَّها "لا تكره" عصيرًا تبلُّ به ريقها الذي "نشف من الحرّ" أو حتى "وجبة غذاء، لم لا؟!" ثم سألته هل يمتلك سيَّارة؟ وأسهبت في الكلام بعد ذلك عن أحد الأشخاص الذين عرفتهم قبله، والذي كان نذلًا جدًّا، حتى إنَّها تتمنَّى ألَّا يكون مثله! وكم

هي "بنت حلال" غير أنَّ الحظَّ لا يُحالفها كما يحالف عادة "بنات الحرام".. "وهكذا الدُّنيا"..

تبخَّر سحر اللَّحظة في ثوانٍ، وعلم أنَّ الفتاة التي كان ينتظرها في ذهنه فقط، فقد رسم لها شخصية مختلفة في مخيلته، وأسقط عليها احتياجاته، فكان عليه أن يعتذر ويتراجع، ويدخل في خانة الأنذال الذين تخلوا عنها..

علاقاتٌ سامَّةٌ

كانت جارتي السيِّدة كنزة امرأة ذات مهارات كثيرة، وخصال معظمها جيدة، فقد كانت تحبُّ المساعدة، واستقبال النَّاس، والتَّعرُّف على الجيران وعائلات أصدقاء الأبناء، وكذلك الاعتناء بشؤون البيت. لكنَّ عيبًا واحدًا أخلَّ بكلِّ تلك الصِّفات الكريمة وطغى عليها، وهو شعور عميق بالنَّقص، تفعل كلَّ ما يمكن لإخفائه أو تعويضه دون جدوى.

جعلها ذلك الشُّعور تُقارن نفسها دائمًا بالغير، وتتحسَّر على ما ليس لديها؛ فتعمى عن رؤية كلِّ الأشياء الجميلة في حياتها، وكأنَّها لا شيء.

تتألَّم لرؤية امرأة مُنفتحة ومُقبلة على الحياة، وتنسى أنَّ لها زوجًا وأبناء، وتتحسَّر على فوات الدِّراسة وفرصة العمل، وتنسى أنَّها تعيش في رغد، وتشعر بالغيرة من رؤية إحداهنَّ في انسجام مع شريكها، وتغفل عن كون زوجها ربَّ أسرة جاد ومحترم!

كلُّ ذلك كان يُنغِّص عليها حياتها، ويبدو جليًّا على قسمات وجهها الذي تأثَّرت تعابيره بسبب الانقباض والتوتُّر، وكانت تغلبها تلك

المشاعر المؤلمة، وتخرج أحيانًا إلى السَّطح رغمًا عنها، فتجدها تتصرَّف بشكل غريب تُحاول به إيذاء مَن تكره حولها من نساء أو رجال العائلة.

كان يعرض لها مثلًا أن تنزع من أمام إحداهنَّ طبق الفاكهة والجميع ينظر، أو تهرق عليها قهوة مُتعمدة، أو ترميها بإشاعة مُغرضة تُحاول بها تحطيم معنوياتها، أو تُتلف شيئًا مهمًّا لشخص من أفراد عائلتها الكبيرة كي تُسبِّب له ضررًا أو ضيقًا، وقد تفرح أحيانًا لموت أحد يمتُّ بصِلة لشخص تكرهه، أو تُعطي نصيحة كاذبة أو مشورة مُضلِّلة!

انهالت بالضَّرب ذات مرَّة على خادمة كانت تعمل عندها، ثم شرعت في بكاء هستيري؛ لأنَّها أحسَّت ربَّما بالنَّدم (أو بالارتياح، مَن يدري؟!) الذي تخلفه التصرُّفات اللا شعوريَّة المكبوتة.

قطعت علاقتها بصديقة حصلت ابنتها على الدَّرجة الأولى في فصلها الدراسي وكانت زميلة ابنتها..

ثم خرجت هائمة على وجهها يومًا عندما علمت بأنَّ جائزة التفوق في مسابقة للرياضيات آلت إلى أحد زملاء ابنها!

كان ذلك مثار دهشة وغضب وشفقة في آنٍ واحد، يجعلك تتساءل كيف ينشغل الإنسان بالآخرين، ويُضيّع عليه فرصة العمل على تحسين أوضاعه والاستمتاع بما لديه مهما كان قليلًا أو متواضعًا، فالذي لا يسعد بالقليل المتواضع لن يسعد بالكثير المتميز!

وأخيرًا انتهى المطاف بمن عرفوها إلى البعد تدريجيًّا، فقد كانت العلاقات معها وديَّة في الظَّاهر، سامة في الباطن؛ ولم يبق حولها سوى مُغفلون التوتْ عليهم حبائلُ حبٍّ مرضي مجنون!

اضطراب ما بعد الولادة

كانت تنبعث من البيت رائحة كريهة، وعلى الأرض كومة حفَّاضات أطفال مستعملة، وعلب مواد غذائية فارغة على الطَّاولة، وأكياس بلاستيك ملقاة، وفوط صحية في الحمَّام تفوح منها رائحة دم فاسد.. كان الوضع صعبًا جدًّا.

عندما اتَّصل ذلك الزَّوج بالمصحَّة النَّفسية ليأخذوا زوجته من أجل العلاج، حاول دون جدوى أن يتكلَّف بالرَّضيع والتَّسوُّق والطَّبخ وتنظيف البيت، لكنَّه فشل في النِّهاية، خاصَّة أنَّها كانت تنتحب ليل نهار، وتظلُّ في فراشها طوال الوقت.

أصرَّ بأن يرسل في طلب أمِّها لكنَّها رفضت، وقالت وهي تبكي بأنَّها لا تريد أحدًا في البيت غيره، وأنَّ الجميع قد يُؤذي ابنها.

"إنَّها أمُّك، يستحيل أن تُؤذي ابنك!" ظلَّ يُردِّد.

أجابت: "لا، ستشفق أمِّي على حالي، وترمي بالطِّفل في مكان ما!" والدُّموع تنهمر من عينيها كالمطر.

كان مولودها الرَّابع، ما يعني سنوات من النَّوم المتقطِّع والرضاع والإفطام والحرمان من الحرية والاسترخاء.

كان يعني حمل الحقائب حيثما ذهبت ومُعقم الرضاعات وزجاجات الحليب..

كان يعني أيضا الاعتذار عن حفلات الزَّفاف الطَّويلة والسَّفر المنظَّم في العمل..

كان يعني الجري ليلًا للمستعجلات بسبب حمى طارئة والبحث عن صيدليات الحراسة..

كان يعني أرطالًا من الوزن الزَّائد والفساتين الواسعة والأحذية بدون كعب، والصُّراخ، والسَّخط، والتذمُّر، والعياء، وآلام الأقدام المتورِّمة و..و..و..

كان يعني التنزُّه أحيانًا وأحد الأطفال في ذراعيها وبقع قيء أو حليب على ملابسها، وقد سقط منها مقبض شعرها، وتبعثرت خصلاته، وصراخ الطِّفل في أذنيها، وعجين البسكويت الذي مضغه ومسحه عليها لا يزال مُلتصقًا بها..

منذ مدَّة بدأت تحسُّ بالهلع، وبالضَّبط منذ أن سقط أحد أطفالها من يديها في الحمَّام، وجُرِح في رأسه، أصبحت تستفيق مرتعدة في اللَّيل، وتُخفي وجهها في ظهر زوجها وهي تُحاول تهدئة نفسها، كما أصبحت تخشى مواعيد حمَّام الأطفال وتُؤخِّرها حتى تصبح ضرورة قصوى..

استيقظت ذات يوم ونزلت مُسرعة في الدرج تبحث عن ابنتها ثم انتبهت إلى أنَّها تحملها بين يديها وخجلت من نفسها، هل بدأت تفقد صلتها بالواقع؟! هل سقطت دفاعاتها النَّفسية الواحدة تلو الأخرى؟ هل فقدت قدرتها على التحمُّل؟

كان الأمر مقلقًا بلا شكٍّ، وآلَ أخيرًا إلى اضطراب ما بعد الولادة!

قتله العجز

عندما بدأت عملي أول مرة بتلك الثَّانوية التَّأهيليَّة، كان الأستاذ جمال يُدرِّس الطَّبيعيات، ولم أره سوى مرَّات قلائل، فقد كان هو وزملاؤه يحضرون الشَّاي في مختبرهم أثناء أوقات الاستراحة، ولا يتحمَّلون عناء المجيء إلى قاعة الأساتذة التي كانت تبعد عنهم نسبيًّا.

لم يكن أحد يعلم شيئًا عن ظروفه العائليَّة، فقد كان كتومًا جدًّا، كان يشتغل دون ضوضاء، ويغادر المؤسَّسة في صمت، حتى التَّحية لم يكن يلقيها على أحد إلَّا إذا اضطرَّ لذلك، أو كان في مقابلة مباشرة.

وككلِّ الأشخاص الكتومين والمنعزلين لم يكن يعبأ به أحد غير زملائه المقرَّبين الذين يشربون معه الشَّاي، ويحترمون خصوصيَّاته؛ فلا يطرحون عليه أسئلة.

كان وضعه الماديُّ باديًا للعيان، فقد كان مهملًا في شكله، ويركن سيارة قديمة في أحد جوانب المدرسة، مُقشرة الطِّلاء، وفي حالة رديئة..

وفي أحد أيام العمل، كانت صدمة الزُّملاء قويَّة حين سمعوا بخبر موته. ولا أدري لماذا تبادر إلى ذهني عندئذٍ أنَّه قد يكون مات منتحرًا، ثم استفسرت عن الأمر فقيل لي بأنَّها كانت سكتة قلبية.

الغريب في الأمر أنَّ ذلك الأستاذ كان يعيش مع طفلين معاقين تركتهما أمهما التي كانت ابنة عمِّه، وعادت إلى بيت أهلها، فطلَّقها.

كان يعتني بالطِّفلين، ويُحضِّر دروسه، ويأتي إلى عمله بعد أن يغلق عليهما الباب بالمفتاح، ثم يعود ليهتمَّ بشؤون البيت وحده.

شعرت بالأسى عليه حين علمت بقصَّته، وتساءلت إن كان الإحساس بالعجز هو مَن قتله وأسكت قلبه الذي لم يعد يحتمَّل العذاب، ثم شعرت بالأسى أكثر على الطِّفلين.

علمت فيما بعد، وأنا أدرس أثر الضُّغوط النَّفسية على الأشخاص، بأنَّ الانطوائيين أكثر عرضة للانهيار من غيرهم؛ لذا قد يكون من الجيِّد أن نُعلِّم أبناءنا الإقبال على الحياة الاجتماعية وعدم الخجل من طلب المساعدة في حالة العجز والتَّعبير عنه للمُقرَّبين أو الأخصائيين.

إنَّه أخوك

- الأم: إنَّـه أخـوك، لا بُـدَّ أن تحضـري حفـل تخرُّجـه، لا يعقـل أن تتحججي بالعمل!

- البنت: حاضر يا أمي، سوف أطلب رخصة الغرض الشَّخصي.

- الأم: لا تنسي بأنَّ أخاك سيأتي اليوم مع أولاده، وعلينا أن نستعدَّ لاستقبالهم.

- البنت: لم أنسَ يا أمِّي، وأظنك قد رتَّبت كلَّ شيء سابقًا.

- الأم: كيف؟ أتُسافرين وأخوك مريض؟ لطالما كنت أنانية جدًّا!

- البنـت: أنـت تعـرفين يا أمـي أنَّ سـفري هـذا كـان مُرتَّبًـا قبـل أن يمرض، ولا يصحُّ أن ألغيه.

- الأم وهي غاضبة: افعلي ما تشائين إذن، كنت أظنُّ أنَّ أخاك أهمُّ من سفرك!

***

- الأم: سأرسـل إليـك بنـات أخيـك ليقضـوا أيامًـا عنـدك؛ فهـنَّ في عطلة.

- البنت: ولكنَّني لست في عطلة يا أمي!

- الأم: كيف؟ هل ترفضين استقبال بنات أخيك؟ هذا أمر لا يعقل!

***

- الأم: تفضَّل يا ابني الحبيب، كُلْ يا عزيزي، فقد كان سفرك طويلًا جدًّا.

- الابن: شكرًا أمي، وسأذهب بعد ذلك لزيارة أختي.

- الأم: لا تتعب نفسك، ستأتي هي.

***

- الأم: قُمْ يا بني لتنمْ، فأنت مُتعوِّد على النَّوم باكرًا.

- الابن: لا تقلقي يا أمِّي، فأنا في عطلة، وأودُّ البقاء مع أختي قليلًا.

- الأم: لا، لا. لقد تركت زوجتك بالدَّاخل، وعليك أن تلتحق بها، إنَّها أجنبية، ولا يصحُّ أن تتركها وحدها.

***

- الأم: أُخرج قليلًا يا ولدي، خُذْ زوجتك وأبناءك إلى البحر، أو احجز في مكان جميل حيث الفنادق والمحلَّات الكبرى والملاهي لتُرفِّه عنهم.

- الابن: شكرًا يا أمي، لكنَّي أستمتع أكثر بجانبكم، وها قد جاءت أختي وأولادها، ولا أحب أن أتركهم.

- الأم: لا، لا تهتمَّ بالأمر. فقط، افعل ما يبدو لك مناسبًا، أنت أعلم بشؤونك.

- الأم: كُلْ يا ولدي، فقد صنعت الكسكس من أجلك؛ لأنَّك تحبُّه.

- البنت: نحن محظوظون بك يا أمي.

- الأم: أما أنت فكُلِي قليلًا؛ لأنَّك تزيدين في الوزن يومًا بعد يوم، لقد سمنت كثيرًا!

***

- البنت: سأعود إلى بيتي يا أمي، فقد غبت عن زوجي اليوم كله.

- الأم: وماذا سيحصل إن غبت عنه، هل هو طفل صغير مثلًا؟!

- البنت: حسنًا يا أمي، يبدو أنَّ مقاييس الأحكام هنا تختلف حسب كونك امرأةً أم رجلًا.

- الأم: كيف؟

- البنت: أنا لم أكن ولن أكون أبدًا مثل أخي، فهو أهم منِّي؛ لأنَّه رجل، و"هذه ميزة لا حيلة لنا فيها"، كما قالت إحدى شخصيات نجيب محفوظ! لذلك لا يسعني سوى أن أفعل ما يبدو لي مناسبًا أيضًا.

- الأم: كيف؟ هل تُغيرين من أخيك؟ عندما كنت في عمرك تنازلت لأخي عن ميراثي، وتقاسمت معه أجرتي، وخدمت زوجته وأولاده.. وأنت ماذا فعلت؟ يا للعجب! كيف أصبحتنَّ أنانيات! إنَّه أخوك!!

بيتٌ مُنظَّمٌ جداً

كان فارق السِّنِّ بين صُوَيْحبتي وأختها كبيرًا حتى ظننت أنَّها أمها عندما فتحت لنا الباب، ونحن عائدتان من المدرسة، وكنت قد أخبرت أمي سابقًا بأنَّني سأذهب هناك.

كانت تنبعث من المطبخ رائحة سردين مقلي وعدس شهي، أما الأخت فقد بدت لي طويلة بشكل ملحوظ آنذاك ونحيفة، خاصَّة أنَّني من أسرة لا تعرف بالطُّول كثيرًا.

رحَّبت دون أن تظهر عليها ابتسامة، أو يظهر عليها سرور لقدومنا، وكنت حسَّاسة لتلك التَّعابير، فظللت حذرة لا أتحرَّك إلَّا بإشارة من زميلتي.

طلبت منَّا أن ننزع أحذيتنا، ونغسل أيادينا جيدًا، وقدَّمت لنا الغذاء الذي كان على بساطته لذيذًا. أما البيت فلم أرَ أنظف منه في حياتي، تفوح منه رائحة المطهرات والصَّابون.

كان كلُّ شيء مُرتَّبًا، ولا حذاء واحد في الطَّريق كما كان الأمر عندنا، ولا لعب فوق الأرض، أو كتب، أو وسائد مُكوَّمة، كما كنَّا نستمتع أنا وإخوتي برميها والقفز عليها، فهمت لماذا كانت دفاتر زميلتي

هي الأكثر نظامًا ودقَّةً في القسم، ولماذا كان خطها الأجمل وكان سلوكها الأمثل!

عندما عدت إلى بيتنا شعرت بفرح كبير؛ لأنَّه ليست به قيود كثيرة أو نظام قاس، فرغم أنَّني كنت تلميذة مجتهدة إلَّا أنَّني كنت أحب اللَّعب جدًّا والفوضى أحيانًا والحرية مطلقًا..

وحتى اليوم، تخنقني الإلزامات مهما كانت بسيطة، وأحب الاستمتاع باللَّحظة، ولا أميل إلى التَّخطيط أبدًا.

العقد الأحمر

وضعت ليلى العقد الأحمر على عنقها، وتأمَّلت نفسها في المرآة، بدت جميلة جدًّا خصوصًا بعدما قامت بتسريح شعرها عند الكوافير، ووضعت أحمر شفاه خفيف لا يُكاد يرى.

كانت أمها بالخارج، ولو دخلت فجأة ورأتها على ذلك الحال لضربتها.

كانت تخاف عليها من الغرور، ومن طيش البنات؛ فلجأت إلى حيلة قاسية، وهي أن تقنعها بأنَّها قبيحة، ولن يهتمَّ بها أحد، وعليها أن تترك نهائيًّا كلَّ تفكير في مواضيع الجمال والأناقة، ولن تنفعها سوى دراستها فقط.

قالت لها أيضا بأنَّه لا يصحُّ أن يظهر من مفاتنها شيء، وأنَّه عيب، حتى بدأت تخجل من كونها أنثى!

لا زالت تتذكَّر كم بكت ومرضت عندما حاضت، وبدأ صدرها يبرز للعيان! تمنَّت لو أنَّها ماتت قبل ذلك!

لكنَّ صديقتها رغد أهدتها العقد وأحمر الشفاه، وأقنعتها بالذَّهاب إلى الكوافير، فكان أن ذهلت بالتَّغيير الذي طرأ عليها حتى اعتقدت للحظة أنَّها هي السِّندريلا نفسها.

دقَّ قلبها بشدَّة وشعرت بالخوف، "لا يمكن أن أكون أنا هذه، لا بُدَّ أنَّها أخرى!" ثم سمعت خطوات أمِّها في البيت، فذهبت تغلق عليها الحمام، وتغسل وجهها بالصَّابون، وبعثرت شعرها وحزمته وأزالت العقد.

أعادت كلَّ تلك الأشياء إلى صديقتها، وقالت لها: "ابتعدي عنِّي! فأنت تُريدين خداعي والسَّير بي في طريق الغواية، أنت فتاة سيِّئة". كانت تُردِّد كلمات أمِّها وكأنَّها كلماتها، فلم يكن لها رأي مستقل، ولا حتى رغبات واعية.

لكنَّ المسألة لم تكن مسألة شيطان وغواية فقط، فقد اطلعت على ألبوم الصُّور، ورأت كيف كانت أمها ترتدي ملابس البحر في السَّابق، فما الذي حصل لها؟ هل هي وفاة الابنة الأولى؟ أم هو خوف الأم الزَّائد؟ أم العودة إلى ثقافتها البدوية الأصلية؟ أم كراهية للذات انعكست على الابنة؟ أم غير ذلك من الأسباب؟!

كان كل ما يمتُّ بصِلة إلى الأنوثة آثمًا في نظر ليلى، أو هكذا تعلَّمت، فكان عليها أن تسحق كلَّ رغبة في التجمُّل أو الزِّينة أو الحبِّ.

وحتى بعدما كبرت وتزوَّجت بابن عمِّها ظلَّ الشُّعور بالذنب يخالجها كلَّما وضعت مساحيق على وجهها، أو كحلًا في عينيها، ولا ترتاح إلَّا وهي في أبسط أحوالها.

وأحيانًا، خفية، تتمنَّى لو عبَّرت عن نفسها بكلِّ حرية، وأحسَّت بجمالها دون عقدة ذنب، فترغب أن تكون هي نفسها، لا الشَّخص الذي صنعته أمُّها.

كانت جميلة بالدَّاخل، ومن الخارج، فصنعت منها كائنًا شائهًا لا يكاد يتعرَّف على نفسه!

فحين تتدخَّل قسوة التربية في الطَّبيعة اللَّيِّنة تكسرها، وتخنق فيها البذور الطيِّبة التي يمكن أن تتفتَّح عن مكامن العطاء والخير والجمال..

مرَّت ذات يوم بجانب محلٍّ للإكسسوارات، واشترت عقدًا أحمر وخبَّأته في خزانتها، ثم أهدته لابنتها..

نجوميَّة السَّعادة

كـان خليـل وسميَّـة لا يـزالان حـديثي الـزَّواج، جـذَّابينِ، مزهـوَّيْنِ بأنفسهما، في قمَّة السَّعادة. يتقرَّب الكلُّ منهما، ويجلبان الفرحة أينما ذهبا، كانت بهجة الشَّباب تغمرهما، والثِّقة التي يخلفها النَّجاح وإعجاب النَّاس..

يلبسانِ نفس الألوان، فإذا كانت هي في ثوب بنفسجي وضع هو الآخر ربطة عنق بنفسجية، وإذا ارتدت هي فستانًا ورديًّا كان قميصه هـو الآخـر ورديًّا.. وهكـذا يسـتمتعانِ بلعبـة الانسـجام والتَّوافـق في الأذواق والشَّكل والمشاعر.

ظلَّت هدايا الأهل والأصدقاء تنهال عليهما كعريسينِ جديدينِ مدَّة طويلة، لكنَّ سعادتهما طالت حتى نسيا كلَّ مَن حولهما، وركَّزا على نفسيهما فقط، كأنَّهما آدم وحواء، وحدهما في الوجود.

نسيا العالم بأسره، وظلَّ يغازلها وتغازله دون اعتبار لمن حولهما، يبتسمان لبعضهما البعض في رفقة الأصدقاء المرضى أو المديونين أو المهمومين، وفي لمة العائلة المكروبة التي تبحث عن مساعدة أو مؤازرة، ثم لا يأبهانِ بأحد!

كانا كمن قال عنهم دوستويفسكي: "إنَّ النَّاس السُّعداء لا يُطاقون في بعض الأحيان!"

اغتاظ منهما الأهل والجيران والأصدقاء، أخيرًا، بعدما كانوا مصدر سعادة وفرح، صار الجميع يتجنبهما.

فجأة انتبها ألَّا أحد أصبح يهتمُّ بهما، فشعرا بالعزلة وافتقدا "النُّجومية" التي كانت جزءًا من حياتهما، وكانت تُضفي عليها بريقًا وجاذبيةً، تلك النُّجومية هي التي تجعلك تحت الأضواء، وتجعل الآخرين في الظلِّ؛ فلا يظهرون لك، لكنَّك تظلُّ تحسُّ بوجودهم، وتحسُّ أيضًا بانسحابهم.

كانا يظنَّانِ أنَّهما سعيدينِ بأنفسهما فقط، ثم تبيَّن لهما أنَّ الآخرين كانت لهم يد في تلك السَّعادة، وأنَّ عليهما الاعتراف بهم، وتبادل الاهتمام معهم.

علاقة متوترة

عندما اتَّصلت بي إحدى قريباتي ذات ليلة، وكنَّا في خصام قد استمرَّ مدَّة طويلة، وتتجنَّب كلٌّ منَّا الأخرى قدر الإمكان.

قالت لي بأنَّها ستُجري عملية جراحية، وتُريد أن تراني قبل ذلك.

شعرت بغصَّة في حلقي، وقلت لها، وأنا أُخفي قلقًا شديدًا، بأنَّ كلَّ شيءٍ سيكون على ما يرام، وأنَّها ستجدني بباب المستشفى في الموعد المحدَّد.

وبالفعل ذهبت إلى هناك، وظللت أنتظر حتى تمَّت العملية بنجاح، واستفاقت من التَّخدير، وهنَّأتها بذلك؛ فابتسمت وشكرت، ثم عدت إلى بيتي.

بعدها عدنا إلى ما كنَّا عليه في السَّابق، لا تُحاول أيُّ واحدة منَّا أن تتقرَّب شبرًا من الأخرى، لكنَّني علمت شيئا مهمًّا جدًّا، وهو أن تجافي الأهل والأحبة قد يطول، وقد يستمرُّ، وقد يدوم لسبب أو لآخر، لكنَّ أرواحهم في تلاقٍ مستمر، "وقلوبهم على بعض" كما يقول المصريُّون، وتجدهم في الشدَّة واقفين بجانبك لا يُساومون ولا يتردَّدون..

قد يكون في البعد راحة لكنَّها ليست قطيعة، وقد يكون هناك تجافي لكنَّه ليس عداوة، وقد تكون هناك ملامة لكنَّها ليست بغضًا أو كراهيةً.

كان يهمُّها أن أكون معها في الوقت الصَّعب، وكان يهمُّني أن تعرف أنَّها ليست وحدها، فيما عدا ذلك فلها حياتها، ولي حياتي طالما الأمور بخير، هكذا حقَّقنا معادلة مُريحة لعلاقة مُتوتّرة لا تنجح في التَّلاقي أبدًا!

همَّةٌ ضعيفةٌ

غرق في أفكاره وهو يمشي في جنبات السكَّة الحديدية القديمة الموجودة بضواحي المدينة، كانت تلك هي وجهته المفضَّلة حيث الهدوء، ومنظر البادية البسيط المتواضع، يتحرَّر من إزعاج الآخرين، ويلتقي مع نفسه دون عوازل رأسًا لرأس.

كان قد اعتاد على حياة الجامعة، وعرف منى، وصار غير قادر على العيش مع العائلة.

يُقزِّزه منظر والديه وهما يتخاصمان يوميًّا في ذلك السنِّ، لم يعد يتحمَّل صراخهما، وهي تكيل له الشَّتائم، وتدعو عليه بالسُّوء، فينهض رافعًا عكَّازه في وجهها ويضربها به أحيانًا.

كان يكره تلك المشاهد البغيضة الحمقاء لأناس عاشوا خمسين سنة معًا دون أن يملَّا من مشاحناتهما البلهاء عن الجلباب الذي لم يُنظَّف أو "البُلغة" المفقودة، أو كسرة الخبز الباردة!

كان يتمنَّى لو يهاجر إلى ما خلف البحر الأبيض المتوسط دونما رجعة، لكنَّه كان يحبُّ أخواته البنات، ويتأسَّف لتركهنَّ المدرسة، فقد

أصبحن شابَّات من دون تعليم، أو صنعة، أو حتى خفَّة عقل، أو ذكاء، وأبوهنَّ شيخ كبير، وتقريبًا مُعدم، وهناك أيضا منى التي وثقت به..

كان يُفكِّر ويُفكِّر حتى يجهده التَّفكير ثم يعود إلى الغرفة التي اكتراها من أجل الدِّراسة في حي الزَّيتون.

كان لديه عمٌّ بالخارج في ألمانيا، وقد لمح له مرارًا بشأن الزَّواج من ابنته لكنَّه تجاهل الأمر، وأخيرًا بدأ يُفكِّر جدِّيًّا في العرض، سوف يحصل على الجنسية، ويجد عملًا، ويُساعد أخواته البنات، أما منى فستجد شخصًا آخر يتفهَّم الأمر!

حتى الدِّراسة التي يحبُّها عليه أن يتخلَّى عنها، وربَّما يعود إليها مرَّة أخرى، مَن يدري؟!

في النِّهاية ابنة العمّ هذه ستُنقذه، وسيكون فرصة جيدة لها أيضًا، فقد أخبره عمُّه أنَّ الشباب هناك إمَّا ألمان أبًا عن جدٍّ لا يمكن الزَّواج بهم لأسباب دينية، أو مسلمون بالوراثة لكن غير مقنعين من حيث السُّلوك ودرجة تحمُّل المسؤولية.

قالت منى بأنَّه ذهب ولم يعد، ولم يُكلِّف نفسه عناء إخبارها بالأمر، حتى عندما توفَّت والدته لم يأتِ لحضور الجنازة، أما ابنة عمِّه فطلَّقته، وظلَّ هناك يتسكَّع ويعيش على المساعدات والتَّعويض عن البطالة..

كانت همَّته ضعيفة جدًّا، يبحث عن الحلول السَّهلة والسَّريعة، وكان ذلك المصير الذي استحقَّه..

قطَّة في قسم الطبِّ النَّفسي

جلستُ أنتظر أمام المبنى المخصَّص للطبِّ النَّفسي–مصلحة النِّساء، من أجل الزِّيارة، وكان هناك حارس يحبُّ الحديث.

أخبرني عن القطَّة الصَّفراء التي تعيش بجانبه، قال لي بأنَّها فقدت صغارها جميعهم منذ أيام فقط. قلت له:

– جميعهم؟!

– نعم، جميعهم.

– ولماذا؟

– لأنَّها أيضا كأمهات البشر، هناك مَن تعرف كيف تعتني بصغارها، وهناك من لا تعرف.

– قلت: سبحان الله، هم مثلنا أيضًا! المسكينة لا بُدَّ أنَّها تألَّمت لذلك!

– قال: وليست هذه المرَّة الأولى، فقد ضاعت لها هررة من قبل، ولم يعشِ أيٌّ واحد منها.

– ثم أضاف: أظنُّ أنَّ هذه القطَّة حمقاء.

نظرت إليه برهة، وعلَّقت على كلامه: لهذا اتَّخذت مسكنًا في مستشفى الأمراض العقلية؟

ضحك من سؤالي مُقهقهًا، ولولا ذلك لشككت في أمره أيضًا.. ثم ابتسمت وقد رقَّ حالي فعلًا لتلك القطَّة!

حديثٌ في الحدائق

كنَّا قد مشينا كثيرًا حتى وصلنا إلى الحدائق المحيطة بتلك المدينة الصَّغيرة النَّائية، وافترشنا الأرض من أجل استراحة قليلة، كانت حاملًا في شهرها الثَّامن، وكان عليها أن تُمارس المشي يوميًّا.

كانت قد تعرَّضت في السَّابق إلى جلطة دماغية تسبَّبت لها في شلل نصفي دام عدَّة سنوات وتغلَّبت عليه جزئيًّا بفضل التَّرويض. ولم تكن لتفرط إذن في الرِّياضة أو في الدواء المضاد لتخثُّر الدَّم.

كانت زميلتي الوحيدة هناك وسط مجموعة من المدرِّسين الرِّجال، وكنا مُضطرَّتينِ للتَّعاون معًا وتكوين صداقة امتدَّت حتى خارج المؤسَّسة؛ لأنَّه ما من وسائل ترفيه أو علاقات اجتماعية أو أماكن مُخصَّصة لقضاء أوقات الفراغ غير البيت أو الحدائق القريبة..

وكنت أحبُّ أن أزورها في بيتها؛ لأنَّها كانت تصنع خبزًا شهيًّا وقهوة لذيذة رغم الإعاقة الجزئية، وتضع أغاني أم كلثوم، خاصَّة "رق الحبيب" التي كانت أغنيتها المفضَّلة، والتي صارت بعد ذلك تُذكِّرني بها دائمًا.

قالت لي ذلك اليوم بأنَّها لن تنسى أبدًا حينما توغَّلت رجلها بين قضبان سكة حديدية بإحدى مدن الشَّمال وهي تعبر للجهة المقابلة،

وظلَّ زوجها في الجانب الآخر ينظر إليها دونما حراك بينما سارعت أختها لإنقاذها وانتشالها، وكان هناك قطار آتٍ.

ثم الإصابة بالجلطة وما تلاها من محن، فلم يعتنِ بها آنذاك سوى والداها وأخواتها.

أما زوجها، فقد قالها صراحة بأنَّه صبر معها بعد الحادث فقط لئلَّا يُقال عنه بأنَّه تخلَّى عنها ولم يكن شهمًا، وأثبتت له الأيَّام أنَّ صبره كان في محلِّه، ولم يذهب سدى..

كانت في الماضي، قبل أن أعرفها، تمشي في خيلاء وزهو، والكلُّ ينظر إليها بإعجاب، فظلَّت تعتقد أنَّ ما حدث لها من جلطة كان بسبب "العين" رغم أنَّها امرأة منطقيَّة جدًّا وواقعيَّة في أغلب الأحوال..

وفي بداية حياتها العملية، كانت تساعد والدها بقدرٍ شهريٍّ من المال وتتذمَّر من ذلك، لكنَّها فهمت بعد الحادث أنَّه الوحيد الذي لن يتخلَّى عنها أبدًا.

جعلها ذلك الحادث تتغيَّر بشكل جذري، وتُعيد حساباتها في الحياة، فأصبحت أقلَّ حرصًا، وأكثر عطفًا على المساكين، ثم عكفت تعتني بشكلها وبراحتها النفسية أكثر من ذي قبل.

وأخيرًا قالت لي بأنَّ على المرأة ألَّا تُفرط في عملها واستقلالها المادي؛ لأنَّهما سندها الحقيقي والأول في الحياة قبل الزَّوج، وكنت أُفكِّر آنذاك في ترك عملي والبقاء في البيت.

ظلَّت شامخة وأنيقة ومميزة، وبالكاد تبدو عليها الإعاقة، فقد كانت تمشي مع عرج خفيف جدًّا، وتكتب باليد اليسرى، وتأخذ حصصًا كاملة كباقي الأساتذة، وتحضر الاجتماعات، ثم في أوقات الفراغ تنصت للطَّرب، وتعتني بأظافرها ورجليها وبشعرها الفاحم الطويل..

كان جمال روحها يزيدها رونقًا وبهاءً..

المولودة فتاةٌ

وضعت مولودتها على الأرض، وقطعت الحبل السُّرِّي بسكِّين حاد كان في كيس تحمل فيه خبزًا وزبدة تقتات منهما أثناء رحلتها الشَّاقَّة في جمع الحطب من النَّواحي المجاورة.

تلك هي عائشة زوجة موحى، امرأة قويَّة البنية، تعمل منذ الفجر إلى الغروب في ذلك "الدشر" البعيد الموجود بالأطلس الكبير، لم يمنعها كونها نفساء من أن تحمل الطِّفلة فوق صدرها وتضمُّها بالمنديل الذي كان فوق رأسها، ثم تُغطِّي شعرها بالخرقة التي كانت تصرُّ فيها الخبز ليبقى طريًّا.

عادت إلى منزلها بالطِّفلة وبالحطب أيضًا، واعترضتها حماتها تأخذ الأثقال عنها وتزغرد لتجتمع النِّساء حولهما، ويبدأ الفرح والاعتناء بالسيِّدة النُّفساء.

كانت تلك مولودتها الأولى، وكانت على علم بما يُحاك حولها، فقد سمعت أهل زوجها يقولون بأنَّهم سيُعطون المولود القادم –إن كان فتاة– لابنتهم التي تعيش بالخارج، والتي تزوَّجت منذ عشر سنين ولم تنجب.

لم تقل عائشة أيَّ شيء، بل أرضعت ابنتها وشمَّت رائحتها طوال اللَّيل، ومسحت دموعًا صامتةً، وفي الصَّباح جاءت أخت الزَّوج مُحمَّلة بالهدايا وأخذت الطِّفلة.

لا أعرف كيف مرَّت تلك السيِّدة بالرَّضيعة دون أوراق من حواجز الجمارك (ربَّما أخفتها في مكان ما بالسيَّارة) ولا كيف أعطتها اسم زوجها العائلي بفرنسا، كل ما أعرفه أنَّ عائشة قامت من فراشها في اليوم نفسه وأخذت الحمال وكيس الخبز ثم ذهبت لجمع الأحطاب.

بكيت من أجلها عندما علمت بالأمر، وقد كان زوجها يأتيني بالحليب كلَّ يوم، وطلبت منه أن يأخذني عندها لأُواسيها، لكنَّها قالت لي دون أي مرارة أو حزن: "سوف أُنجب أطفالًا آخرين!"

عادت الطِّفلة الصغيرة فيما بعد مع أبويها المتبنِّيين، وكانوا يأتون بها كلَّ صيف لزيارة أهاليهم، وفي كلِّ مرَّة تستقبلهم عائشة دون أن تُبدي أيَّ ضعف أمام الصَّغيرة وكأنَّها ليست ابنتها، هل مسحت ذلك الحادث من ذهنها لكي تعيش؟!

كانت مُتجلِّدة إلى أقصى الحدود وصابرة وقوية، وكانت صورتها لا تُفارق خيالي، وكل أمانيّ أن تعود إليها ابنتها، حتى أنَّني نقمت دون أن أشعر على أخت زوجها وأبديت لها بغضًا وجفاء في كثير من الأحيان.

أرض وهواء

في ذلك الصَّيف البعيد، حيث الأيام طويلة جدًّا هناك وحارة بإقليم الرَّاشدية، والنَّاس مختلفة رغم انتمائها الواحد لتلك الأرض، مُقسَّمون حسب الأنساب الشَّريفة وغير الشَّريفة، والأعراق البيضاء والسَّوداء، ثم القبائل والفروع.. لا يتجانسون ولا يتزاوجون إلَّا مع أمثالهم، وتصل بهم القطيعة أنَّهم يرفضون الصَّلاة جنبًا إلى جنب في نفس المسجد!

فلكلِّ "دشر" مسجده وإمامه، كما له دوره في مياه السَّقي وأراضيه الخاصَّة به، وقد يصل الخلاف حول ذلك إلى حدِّ القتل أحيانًا!

كانت أعرافهم صعبة جدًّا، وتقاليدهم منكرة أحيانًا، فقد تحمل المرأة الأثقال على ظهرها وتمشي خلف دابة يركبها الزَّوج فقط، وتنزل إلى الفدادين تجمع الحشائش للبقرة والزَّوج جالس أمام البيت يُدخِّن السَّجائر والحشيش.

شيء واحد فقط كان لصالح النِّساء هناك، هو أنَّها تستطيع مغادرة بيت الزوجية والعودة إلى أهلها متى شاءت (لكن وحدها دون أطفال) ومتى رأت أنَّها لا تستطيع تحمل العيش مع الرَّجل الذي تزوَّجها، ثم يكون لها بعد ذلك أن تختار هي مَن تريد وتُقرِّر مصيرها..

لكن أي مصير؟! ففي كلِّ الأحوال هي أداة لإنجاب الأطفال، ويد عاملة رخيصة لا تستحقُّ حتى مصاريف التَّطبيب!

في ذلك الصَّيف إذن، كانت هناك امرأة لديها ولادة عسيرة جدًّا، وكان على الزَّوج أن يدفع مصاريف نقلها بسيارة الإسعاف إلى المستشفى الإقليمي لإجراء عملية قيصرية لها، ورفض أداء التَّكاليف، فكان أن اعتنت السُّلطات بالأمر، لكن المرأة تُوفِّيت في الطَّريق هي وجنينها للأسف الشَّديد!

كانت هناك حالات عديدة مثل ذلك، وبؤس شديد، و"غلب" وقهر، وفقر، وتحدِّي للطَّبيعة من أجل البقاء.

كانت هناك فاطمة حمو التي مات عنها زوجها وكبرت بناتها وتزوجن، وصارت هي في الستِّين من العمر عندما قدم إليها أبناء السيِّد عسو الذين يعيشون بالمدينة ولديهم ثروة لا بأس بها، فعرضوا عليها الزَّواج من أبيهم الشَّيخ للقيام بخدمته وبالرِّعاية اللَّازمة له مقابل عيش كريم، وربَّما ميراث أيضًا!

لم يكن الأمر غريبًا في حدِّ ذاته، وإنَّما كانت الغرابة في طبيعة ذلك النِّقاش الذي دار بينهم على مسامع الكل، كانت الصَّفقة جزءًا من الزَّواج بشكل عادي، لا يثير أي حرج لجميع الأطراف حتى أنَّه كان هناك من غبط فاطمة حمو على الثَّمن الذي ستحصل عليه بعد وفاة

الزَّوج، وصار يُقدَّر ماذا سيأتيها في نصيبها منه، أهو فدان أم فدانان؟ وهل هو بقرة أم نعجتان؟

كرهت الحياة هناك أيما كراهية بسبب ذلك، واستغربت جدًّا عندما جاؤوا يُودِّعونني بعدما علموا بإشعار انتقالي إلى الدَّار البيضاء وهم يتأسَّفون على مصيري قائلين لي: "لن تجدي خيرًا من هذه البلاد، فأرضنا أحسن أرض في الدُّنيا، وهواؤنا أفضل هواء، نحن نتأسَّف حقًّا من أجلك، عساكم تعودون للعمل هنا مرَّة أخرى، مَن يدري؟!"

ثم أضافوا: "عسى الله يُفرِّح قلبك بخلفة الذُّكور، فإنَّا والله عليك لمشفقون!" وقد كنت وما زلت أمًّا للبنات فقط.

فقر المعنى

شكت لي خديجة يومًا تأخُّر ابنها الدِّراسي، وكانت تسكن بالجوار، وليس بها أي ميزة من ميزات ربَّات البيوت، كثيرة التردُّد على بيت أهلها، وقليلة الاهتمام بزوجها "الغلبان" الذي يذهب باكرًا إلى العمل مهملًا وبدون إفطار، فلا تُودِّعه في الذَّهاب، أو تستقبله في الإياب.

شرحت لها كيف أنَّ الطِّفل يحتاج نوعًا من الاستقرار والاطمئنان في البيت كي يراجع دروسه وينجز واجباته، وأخبرتها بأنَّ ذاكرة الطِّفل مرتبطة جدًّا بالأماكن والانفعالات، فإذا كان يتنقل بدفاتره من مكان إلى مكان ولا يشعر بالطمأنينة؛ فلن يُساعده ذلك على التَّحصيل!

ثم أضفت بأنَّه لا بُدَّ وأن يشعر أيضًا بأن هناك روابط عاطفية ومودَّة بين والديه حتى تتكون لديه ثقة في نفسه وفي الحياة، ويكون إيجابيًّا في المدرسة.

سألتني: "كيف ذلك؟!"

قلت لها: لا بُدَّ وأن تُظهري اهتمامًا بأبيه، فهو يتقمَّص شخصية الأب لا شعوريًّا، وكل مودة أو عداء أو لا مبالاة تجاه والده يعتبرها مُوجَّهة إليه أيضًا دون وعي.

استغربت كثيرًا ثم قالت: "سأحاول".

أضفت: اقضِ مزيدًا من الوقت في بيتك ودعي ابنك يستمتع باستقلاليته ويُشاهدك رفقة أبيه وسترين! اخلقي عادات للأكل ترتبط بأيام الأسبوع، وطقوسًا للنَّوم والاستيقاظ والأعياد، وضعي بصمتك الخاصَّة في البيت، حتى يكون لك حضور، دعيهم يشعرون بأنَّهم أسرة واحدة، لها مصير مشترك، وتجمعهم عاطفة، ويعرفون بعضهم جيدًا، فلا يكونوا كالغرباء!

يجب أن يعرف طفلك والديه، ويتوقَّع ردود أفعالكما كيفما كانت، فيجد لنفسه طريقة للتَّعامل معكما دون خوف من مفاجآت.

قالت: سبحان الله! وما شأن هذا بالدِّراسة؟ أمَّا أبوه فلا يعود إلَّا مُتأخِّرًا كلَّ مساء.

– فقط، افعلي ما قلت لك وانظري. أجبتها.

مرَّت أسابيع وخديجة تُحاول أن تُقلِّل من زياراتها لأهلها، وأصبحت تُؤخِّر وجبة العشاء حتى تجتمع عليها هي وزوجها وابنهما، ثم خصَّصت مكانًا للطِّفل، يدرس فيه، ويلعب بحرِّيَّة، وصارت تظهر اهتمامًا بوالده.

كان ذلك شاقًّا عليها في البداية، لكنَّها أصرَّت على التَّضحية، خصوصًا حين أخبرها معلم ابنها بأنَّه ذكيٌّ ويستوعب بسرعة، ولكن تنقصه الإرادة فقط.

كانت النَّتيجة جيِّدة بعد ذلك، فقد أصبح الولد مرحًا واجتماعيًّا، يُشارك في القسم، ويجد متعة في التَّعلُّم بعدما كان كئيبًا وملتصقًا بها وفاقدًا للرَّغبة في الدِّراسة.

أما هي فوجدت متعة المبادرة، وأحسَّت بأنَّها جديرة بالأمومة والمسؤولية التي يفرضها الزَّواج لتحقيق أسرة مكتملة، وقطعت الحبل السري الممتد الذي كان يربطها ببيت والدها ويُعيقها عن الاستقلال بالذَّات، كما كان يعيق ابنها عن الشُّعور الكامل بالانتماء.

كانت قادرةً على الإنجاز لكنَّها غير واعية بدورها كما هو الشَّأن بالنِّسبة للكثير من أبنائنا وبناتنا الذين يسيرون في الحياة على غير هدى، فلم يكن فقر الزَّوج هو العائق أمام نجاح الابن، ولكن غياب الأسرة وفقر المعنى والرَّمز!

حرمان

تذكرني مريم بشخصية ماتيلدا في قصَّة "طقم المجوهرات" لموباسون، والتي كانت حالمة جدًّا، تتخَّيل نفسها وهي تعيش في القصور، وتمرح في الحفلات الرَّاقصة، وتأكل من الأطباق الرَّفيعة الأنيقة، تعيش ورأسها في الغمام دائمًا، كما يقول المثَل الفرنسي.

تحبُّ الأزياء الجذَّابة، والعطور الفاخرة، والأماكن الرَّاقية، ثم تراها بعد كلِّ ذلك مستاءة، وقد عبرت عن الضَّجر بإيماءة بشفتيها وعينينِ حزينتينِ.

لا يُرضيها أيُّ شيء، وقد كانت في صغرها مُدلَّلة تحصل على كلِّ ما تريد، ويُهدى لها كلُّ ما ترغب فيه وتشتهيه.

عندما أراها أعتقد بأنَّ المنع أحيانًا عطاء؛ لأنَّه يجعلك تُقدِّر ما لديك، وتسعد بالخير حين يأتيك، فالملل مشكلة كبيرة، وعدم تقدير النِّعمة هو حرمان من نوع آخر أيضًا.

عبقرية التَّحرُّش

جلست بعد الامتحان أشرب قهوة تحت أشعة الشَّمس في السَّاحة الكبيرة للكليَّة، وكان هناك طالبان يتحدَّثان بجانبي، أو بالأحرى يتحدَّث أحدهما ويُعلِّق الآخر من حين لآخر.

انتبهت فجأةً لحديثهما عندما قال الطَّالب كثير الكلام بأنَّ الفتيات يعجبهنَّ أن يتغزَّل بهنَّ الشبَّان في الطَّريق.

"إذا ما تأنَّقت الفتاة وخرجت ولم يعرها أحد أيَّ اهتمام؛ فإنَّها تشكُّ في نفسها وجاذبيتها، وقد يحزنها ذلك"، قال لصاحبه.

كدَّر عليَّ ذلك الكلام قهوتي، وأردت أن أجيبه بأنَّ الفتيات حين يخرجن وهن مُتأنِّقات فلأنهنَّ كباقي الشَّباب أيضًا، لهنَّ تصوُّر خاصٌّ عن ذواتهنَّ، ويُعبِّرن عن أنفسهنَّ وشخصياتهنَّ بأساليب مختلفة، منها اللِّباس، أو طريقة تسريح الشَّعر، أو الحجاب، أو وضع إكسسوار أو غيره.. كلُّ ذلك ليكون الإنسان منسجمًا مع ذاته وطريقة تفكيره وتصوُّره لنفسه كفرد ينتمي إلى هذه المجموعة أو تلك..

وهذا لا يعطي لأحد، كيفما كان، الحقَّ في مُضايقته بالشَّارع أو التَّحرُّش به أو اعتراض طريقه بدعوى أنَّه يفهم نواياه وما ينتظر منه.

نظرت فقط إلى ذلك الشابِّ لعلِّي أفهم سرَّ تلك "العبقرية" الزَّائدة، ووجدت أنَّه ما زال صبيًّا إلى حدٍّ ما، في حين كان يبدو الآخر أكثر نضجًا.

قشر باذنجان

كنَّا في إحدى المكتبات أطبع أوراقًا دراسيَّة أنا وإحدى رفيقاتي، وكانت شابَّة في مقتبل العمر، تُعاني كثيرًا من حبِّ الشَّباب بسبب بشرتها الدُّهنية، وتفعل كلَّ ما بوسعها للتخلُّص من تلك البثور التي تُضايقها طوال السَّنة، كان الجميع يُلاحظ ذلك ويُحاول إعطاءها النَّصائح حتى صارت لا تطيق الخروج من البيت، وتأزَّمت كثيرًا.

طلبت منها ذلك اليوم أن تُرافقني، فتردَّدت، وقلت لها: "لا تهتمِّي لأحد، قولي لنفسك بأنَّ هؤلاء النَّاس الذين تُصادفينهم بالشَّارع لا يعنون لك شيئًا، وسيختفون من حياتك إلى الأبد بمجرَّد العودة إلى المنزل."

في المكتبة إذن، التفتت إليها امرأة كانت تنتظر دورها لشراء شيء ما، وبدون سابق إنذار قالت لها:

– اسمحي لي يا أختي، تلك البثور على وجهك، ضعي عليها قشر باذنجان وسوف تختفي..

أجابتها رفيقتي، التي كانت عادة خجولة جدًّا، بنبرة حادَّة في ردَّة فعل غير مُتوقَّعة:

– اهتمّي بشؤونك!

شعرت المرأة بحرج كبير، وقالت: "سامحيني." ثم اشترت شيئًا وذهبت.

عندما خرجنا من المكتبة أخبرتني بما حصل فضحكت كثيرًا وسررت؛ لأنَّها تمكَّنت أخيرًا من أن تُعبِّر عن الاستياء الذي تشعر به من فضول الآخرين بدل الخوف منهم والانعزال في البيت!

الحاجة فاطمة والحنين إلى الماضي

زرت "الحاجة فاطمة" –التي سبق أن كتبت عنها– وأنا في طريقي إلى فاس بالأمس، أردت أن أطمئنَّ على أحوالها، وأُعبِّر لها عن مودَّتي والأثر البالغ الذي تركته في نفسي منذ رأيتها قرابة عام.

وجدتها في صحَّة جيِّدة رغم مسحة حزن خفيفة في عينيها، وكان معظم حديثها يُخفي حنينًا إلى ماضيها السَّعيد، فتحدَّثت عن زوجها بحنان ورقَّة، فهمت إذن أنَّها ما زالت تُحبُّه رغم تقدُّمهما في السنِّ وزواجه من أخرى، وحتى عندما دخل ليُسلِّم وجلس قليلًا ظلَّت ترقبه من حين لآخر ولم يغب عن عينيها.

يبدو أنَّه كان وما يزال يُمثِّل الكثير بالنِّسبة إليها، وأنَّ زواجه من امرأة ثانية لم يُؤثِّر على حبِّها له وارتباطها به.

لو يعرف الرِّجال كم تتألَّم الزَّوجة الأولى التي ضحَّت وأنجبت وربَّت وتعبت حين يتزوَّجون بأخرى أصغر وأجمل؛ لفكَّروا ألف مرَّة قبل أن يقدموا على ذلك!

ولو تعرف النِّساء أنَّ الأزواج يمكن أن يكونوا جاحدين بهذا الشَّكل ما ضحَّين دقيقة واحدة من أجلهم!

قبَّلت رأسها وأنا خارجة، كما يفعلون في بلدتي؛ للتَّعبير عن التَّقدير لكبار السنِّ، وأهديتها وشاحًا أسود بخطوط مُلوَّنة، فابتسمت وفرحت لابتسامتها.

وقلت في نفسي كم خسر الحاج سعيد من محبَّة عندما استبدل ثانية بهذه السيدة الجميلة (لأنِّي رأيتها فعلًا جميلة رغم التَّجاعيد واضمحلال البدن) وقسم حياته بينهما قسمة جائرة، فما زالت هي تعيش بجناح ابنها البكر، وهو معظم الوقت مع الزَّوجة الأخرى..

السيد مصطفى

"أصبحت كحبَّة الجوز الكبيرة، تنظر إليها فتظهر لك قويَّة صلبة، ثم إذا فتحتها وجدت بها سوسًا وجوزًا مهترئًا "، هكذا قال عن نفسه أحد الأصدقاء الذي تجاوز الثَّمانين وهو يضحك عندما سألناه عن صحَّته.

ذكَّرني بمثل شعبي كانت أمي تُردِّده على مسامع أحد أفراد الأسرة، فكانت تقول له دائمًا: "الكبير في الجوز فارغ"، وكانت محقَّة بشأنه، لكنَّ السيِّد مصطفى لم يكن كذلك؛ لأنَّه رجل عصامي عمل أثناء شبابه بفرنسا مدَّة طويلة بصبر قلَّما يوجد مثله، وسكن قرب الطلَّاب المغاربة في تولوز، فكانوا يُقدِّمون له أحيانًا تذاكر المطعم الجامعي حتى يتسنَّى له الأكل بثمن زهيد، أو يظل صائمًا طول النَّهار، وتعلَّم القراءة والكتابة وحده، وجمع مالًا لا بأس به، ثم عاد إلى البلد ليُقيم مشروعًا ناجحًا.

عندما أُشاهد أحيانًا صرامته وحزمه وطريقة كلامه مع النَّاس التي تخلو من أيِّ مجاملة أو مهادنة أتساءل إن كان ذلك من طبعه أم اكتسبه من تجاربه المتعدِّدة.

قال له ابنه ذات يوم: لمَ لا تخرج أمي قليلًا من البيت؟ فهي تحتاج إلى التَّرويح عن نفسها أحيانًا.

فأجابه: ولمَ الخروج من البيت؟ لديها كلُّ ما تحتاج إليه، أليس هناك دقيق وزيت وسكر؟ فلم الخروج إذن؟!

فأجاب الابن: إذن سآخذ أمي وأذهب بها إلى مكان ما للسَّفر، فلديها مالها الخاص.

نظر إليه السيِّد مصطفى نظرة ازدراء، وقال له: ألا تعلم أيُّها الأحمق بأنَّ أمَّك ومالها وكل ما في البيت ملك لي؟ اغرب عن وجهي، وعندما تتزوَّج خذ امرأتك وسافر حيث شئت فلن أحبسك، أما أمك فهي لي!

هكذا كان دائمًا، "دقَّة قديمة" بمعنى الكلمة، أما زوجته فلا أدري كيف ستعيش بعده إن غاب عنها؛ لأنَّه لم يترك لها فرصة مواجهة الحياة يومًا أو التَّعرُّف على الدُّنيا، ظلَّت تحت وصايته، وستنتقل غالبًا إلى وصاية ابنها بعده، ولن تعرف أبدًا ما يدور في العالم من شقاء، أو بؤس أو مواجهة أو صراعات، ستظلُّ كملاك سقط من السَّماء وعاد إليها دون أن تُدنِّسه مشاكل الحياة، أو كطفل عاش وكبر دون أن يعلم شيئًا عن الدُّنيا..

لكنَّ الأقوياء يموتون واقفين، فرغم المرض والعجز أحيانًا يرفض السيِّد مصطفى أن يتخلَّى عن دوره في تسيير شؤونه، وحتى عندما تخونه صحَّته يظلُّ صوته الجهوري قويًّا في البيت، وفي العمل يخيف به كلَّ من تُسوِّل له نفسه أن يُخالف أوامره أو يعصيه.

هكذا القوة غالبًا، ليست مادية محضة، بل أساسها الرُّوح الشُّجاعة والقلب الذي يحمل الإرادة، حتى إذا ذهبت غلبة الجسد ظلَّت هيبة الرُّوح و"طلَّة" الشخصية..

اضطراب الشَّخصية المُتعدِّدة

اعتقد قدماء الإغريق بأنَّ الإنسان يتكوَّن من أربعة عناصر، وهي: الماء والتُّراب والهواء والنَّار، وكلَّما طغت إحدى هذه العناصر على الأخرى أعطت طباعًا أو شخصية من نوع ما.

طبعًا هذه خرافة، لكن عندما ألتقي بالسيِّدة كلثوم، أكاد أجزم أحيانًا أنَّ طبيعتها الصَّلبة والقاسية نُحتت من الصَّخر وليس التُّراب، وعُجنت بالنَّار وليس بالماء، ثم أحيانًا أخرى، أرجع في تقديري عندما أرى عينيها مُبلَّلتينِ بالدُّموع في أوقات نادرة.

حتى الحيوان لا يجرؤ على الاقتراب من بيتها المعروف بعدم الضيافة، وكأنَّهم يُميِّزون بين البشر ويعرفونهم دون اختبار أو مخالطة.

تعيش وحدها، بعد أن تُوفِّي زوجها منذ مدَّة، وتُعاني من هوس التَّخزين أو الاكتناز، فتجدها تحتفظ بقارورات المياه البلاستيكية الفارغة، وعبوات الشَّامبو المستعملة والآلات العاطلة والملابس القديمة..

كما أنَّ لديها اضطراب السَّرقة القهري؛ فتضع أغراضًا في جيبها وهي تتسوَّق دون تأدية ثمنها، وعادة ما تكون تلك الأغراض تافهة وبدون أيِّ فائدة لها.

أما علاقتها بابنها الوحيد فهي غريبة جدًّا، ليس فيها أيُّ تعبير عن الحنان أو التعلُّق كما لو كانت غريزة الأمومة قد جفَّت عندها، أو كما لو كان بها تبلُّد عاطفي، أو حالة جمود، أو اضطراب ما بعد الصَّدمة الذي يخلف حالات من عدم ردَّة الفعل..

وكأنَّ هذا لا يكفي، تتَّصف باضطراب الميثومانيا أو الكذب القهري الذي يجعلها تخبر النَّاس مثلًا بأنها التقت في شبابها بأحد الفنانين الكبار فعرض عليها الزَّواج ورفضته، أو أنَّها عاشت فترة بنيوزيلاندا، أو أنَّها كانت تُتابع دراستها في إحدى الجامعات العالميَّة.. إلخ.

لا تأكل من الطَّبق المقدَّم لها إلَّا إذا رأت المضيف يأكل منه؛ خوفًا من السِّحر أو السُّمِّ، وتنزع الحلوى من حفيدها لتقتسمها معه وكأنَّها طفلة صغيرة..

شابَ شعرها وما زالت تتصرَّف في بعض المواقف كشابة في مقتبل العمر، وتخجل حتى تتورد وجنتاها.

تغار من زوجة ابنها الرُّوسية الشَّقراء التي تعتني بنفسها وتحبُّ الحياة؛ لأنَّها تُذكِّرها بما ضاع منها، أما من ناحية المظهر، فكلُّ شيء فيها

يُوحي بالصَّلابة والقوَّة والخشونة والجفاف، ما عدا ابتسامة جميلة تُواجهك بها إن أحسنت الكلام معها..

تحسُّ بالقلق في رفقتها مهما ظرفت، وأنَّك لا تستطيع التَّنبُّؤ بأفعالها.. كانت غريبة بالفعل، تحيرني حالتها كثيرًا، ولا أجد لها تفسيرًا أو تصنيفًا في الدَّليل التَّشخيصي والإحصائي سوى أنَّه اضطراب الشَّخصية المتعدِّدة، وقد أكون أخطأت!

رمزيَّة العلاقة

عندما قالت لها جدَّتها في لحظة غضب: "أنت وأمُّك غير موجودتينِ بالنِّسبة لي، مَن يهمُّني هو ابني فقط!" تألَّمت صفاء ولم تستوعب ما سمعته، وقرَّرت أن تقطع كلَّ علاقة بها.

تساءلت:

– كيف أكون غير موجودة بالنِّسبة لها وأنا حفيدتها؟ ولم لا يستقيم أن أردَّ عليها بالمثل؟ ولم الاستمرار في صلة يأتي منها كلُّ هذا الألم؟

– هي رمزيَّة العلاقة، ودرجة أهمِّيتها بالنِّسبة إليك، فهي لها الكثير من الحفيدات، أما أنت فلك جدَّة واحدة فقط من اثنتين، قيمة الأشخاص في حياتنا لا تُحدِّدها جودة العلاقة دائمًا، ولكن ما تُمثِّله لنا أيضًا، فهي إما علاقة مصدر، أو امتداد أو ذخر أو اعتزاز.. أجبتها.

– ليكن تعاملك معها إذن من منطلق احتياجك، والرَّمزية التي تُمثِّلها لك، وليس من منطق الردِّ عليها بالمثل.

أما عن الحبِّ والاعتراف فشيئانِ خارجانِ عن السَّيْطرة، فلا يمكنك أن تكوني حاضرة في ذهنها ووجدانها رغمًا عنها، ويكفي أن تحضر هي فيك.

إنَّها علاقة أشبه باليُتْم، لا يملك الإنسان فيها خيارًا، ويكون وجود الآخر ضروريًّا ورمزيًّا.

إدارة بلهاء

بدأ "يُفلِّي" الأوراق الواحدة تلو الأخرى، ويسأل: أين شهادات الخطوبة؟ لماذا لم تُوضع عليها صور شمسية؟ وعقود الازدياد؟ التاريخ مستوفى هنا بأيَّام. وشهادة الطَّبيب، هل أحضرتموها؟

قلت له: وهل ستتغيَّر المعلومات الموجودة في عقود الازدياد إذا مرَّت عليها أيام فوق الثَّلاثة أشهر؟ هل سيتغيَّر اسم والدتي مثلًا أو تاريخ ازديادي؟ لماذا هذا القانون المجحف أحيانًا؟ ألم يقولوا لنا بأنَّ بطاقات التَّعريف الجديدة تُغنيك عن عقود الازدياد وغيرها؟ لم هذه الوثائق كلها التي تفيد الشَّيء نفسه في كثير من الأوقات؟

قطب حاجبيه، وقال: سآخذ معي الأوراق حتى الغد لأُحرِّر عقد الزَّواج، ثم أمرُّ على المحكمة لإتمام الإجراءات..

عندما خرج، سأل المخطوبانِ: هل سننتظر لليوم الرَّابع كي نُوثِّق زواجنا، وقد حضر الأهل والأصحاب زفافنا، واستوفينا كلَّ شروطه من إيجاب وقبول وولي وشهود وصداق؟!

إنَّه حلم العمر، انتظرناه سنين لتحقيقه والعيش معًا جنبًا إلى جنب، ولأنَّ إدارة بلهاء وعمياء وعرجاء تتعامل مع البشر ككائنات من الجماد

علينا أن نبتعد عن بعضنا حتى يأذن لنا رجل أحول ذو لحية مشوبة بالبياض بأن نُقبِّل بعضنا وننام في سرير واحد!

إنَّه العبث بمشاعر النَّاس ووقتهم وسعادتهم والتَّعامل معهم كأنَّهم مُجرَّد أوراق بلا قلب..

مريومة والكلب

سألتني مريم أمس وهي مُدلَّلة البيت بامتياز: "لماذا يظلُّ الكلب الكبير موثوقًا طوال اللَّيل؟ إنِّي أتألَّم لرؤيته كذلك!"

وكانت قد طالبت من قبل بأن يبقى حرًّا طليقًا معظم النهار يعبث في الحديقة، واستجبنا لها.

أجبتها بأنَّ القيود تفيد أحيانًا؛ لأنَّها تضع معالم وحدودًا، كما أنَّ الحرية التَّامة ضارَّة في بعض الأوقات؛ لأنَّها تتسبَّب في الضَّياع.

قالت: كيف؟

قلت لها: خرجت قبل قليل مع صديقتك خولة، ومشيتما في المدينة حتى أعياكما المشي وعُدتما إلى المنزل من أجل الرَّاحة والأكل، أليس كذلك؟

قالت: نعم.

قلت: هل كان البقاء خارجًا باستمرار سيسعدك أم سيتعبك؟

قالت: بل كان سيتعبني جدًّا.

قلت: هو أيضًا يحب أن يعود إلى بيته الصَّغير الدَّافئ ليرتاح ويأكل وينام.

قالت: ولم لا يفعل ذلك دون قيد في عنقه؟

أجبتها: إنَّه يعود ليجلس في مكانه أحيانًا دونما قيد بالفعل، لكنَّه سيفقد تلك العادة إذا ما ظلَّ طليقًا دائمًا، وسيُصبح كالكلاب المشرَّدة، ستفقده الحرية التَّامة معالمه التي ترشده، ولن يكون سعيدًا.

قالت: صحيح؟!

قلت: نعم.

وأضفت: هل تعرفين ما هو أسوأ شيء لدى الإنسان وربَّما حتى الحيوان؟

"هو ألَّا يكون له مكان يذهب إليه!" كما قال أحد الكُتَّاب العباقرة.

اطمأنَّت أخيرًا وظهر عليها الرِّضا ثم ذهبت، أعتقد أنَّها لن تتألَّم كثيرًا لرؤيته موثوقًا بعد الآن..

ابتسامة

من أين تأتي زهراء بكلِّ ذلك التَّفاؤل؟ لم أرها قطُّ عابسةً أو حزينةً أو قلقةً منذ جاءت لتُعوِّض أختها في العمل، وكانت هذه الأخيرة تُريد إجازة مؤقتة طويلة الأمد بعد زواجها، ثم بقيت إلى اليوم أربع سنوات كاملة رغم عودة أختها.

عوضتها في أشغال البيت، ووجدت لنفسها شغلًا آخر، فلمَّا عادت أختها لم يعد بالإمكان صرفها.

لكنَّ الأمر لم يكن يتعلَّق فقط بذلك الشُّغل الآخر بقدر ما كان يتعلَّق بها هي، فقد اكتشفت أنَّه يصعب الاستغناء عن الأشخاص المتفائلين الذين يُصوِّرون لك أيَّ مشكلة مهما كانت على أنَّها مغامرة ممتعة!

أما الابتسامة فلا تُفارق وجهها، ورغم الظُّروف الصَّعبة التي عاشتها في بيتها؛ تشع السَّعادة من وجهها كأنَّها وُلِدت في النَّعيم..

ميزتها أنَّها لا تتلقَّى التَّعليمات وحسب، بل تُعارضك إذا أخطأت، وتُعبِّر عن رأيها بشجاعة، وأحيانًا تقتحم عليك خلوتك لتُخبرك بأنَّ شيئًا ما يجب إصلاحه والتدخُّل فيه، وقد يكون الأمر مهمًّا وعاجلًا.

قلتُ في نفسي مرارًا: لو كان كلُّ العمال مثلها لا يسكتون عن الظُّلم ويبدون آراءهم بشجاعة وتفاؤل وابتسامة؛ لصلحت الكثير من الأوضاع..

امرأة ضعيفة!

كنَّا جالستينِ في صالونها الفاخر، وكانت امرأةً ثريَّة لكن تُعاني من مزاج سوداوي طوال الوقت. فحدَّثتها عن سيِّدة في الجوار عُرِفت بالكفاح في الحياة والعمل الخيري.

كانت السيِّدة التي تحدَّثت عنها قد اعتنت مدَّة طويلة بزوج أُصيب بالشَّلل نتيجة حادث خطير، وربَّت أبناءها وحدها، ثم تفرَّغت للعمل الخيري التَّطوُّعي بعد وفاته، وأعطت معنًى لحياتها.

فقاطعتني مُضيفتي لحظة، وقالت: هل تتحدَّثين عن فلانة التي تسكن قرب المسجد الكبير؟ أعتقد أنَّني أعرفها، هي امرأة "ضعيفة" أليس كذلك؟

وكانت تقصد بـ"الضَّعيفة" المرأة "الفقيرة".

أزعجني جدًّا أن تُوصف تلك المرأة القوية، المكافحة، الصَّبورة والعاملة بـ"الضَّعيفة"؛ لقلة مال أو جاه، فتوقَّفت عن الحديث ولم أُعلِّق، وأعطاني ذلك صورة عن طريقة تفكيرها الضَّيق، وربَّما أيضًا عن سبب من أسباب شقائها.

لم تكن مُضيفتي تعلم أنَّها كانت هي "الضَّعيفة" رغم أموالها، فما كانت تملكه لم يكن قادرًا على تخليصها من كآبتها، وجعلها سعيدة في الحياة، بينما كانت الأخرى غنية بروح مقاومة لا تعرف الاستسلام أو الخوف..

التَّكوين العكسي والنُّكوص

عندما تُوفِّيت والدة الطِّفل حسام وهو في السَّادسة من عمره، تزوَّج أبوه من امرأة تأخَّرت كثيرًا في الزَّواج، ولم تجد أفضل من ذلك الموظَّف الأرمل ذي الثَّلاثة أطفال.

كانت تلك المرأة صلبة وغير حانية، لا تبتسم، ولا تُعبِّر عن أيِّ عاطفة، وتُوحي للطِّفل بالخوف وعدم الثِّقة بعدما افتقد الأمان بموت والدته، خاصَّة أنَّ أباه أيضًا كان رجلًا باهتًا وضعيفًا أمامها.

انتكس حسام إذن وصار يتبوَّل لا إراديًّا في سريره وعلى ملابسه، كما صار يبكي لأتفه الأسباب، ويُتمتم في الكلام.

الغريب في الأمر أنَّه بدل التَّعبير عن الكراهية تجاه زوجة الأب المخيفة أصبح يُلازمها كالظلِّ، ويبكي عليها إذا غابت، ويعتمد عليها كليَّة، حتى ظنَّ الجميع أنَّه يحبُّها كأمِّه.

لكنَّ الأمر لم يكن كذلك في الحقيقة، فقد كان يكرهها، ويخاف منها، ولجأ لاشعوريًّا إلى حيلة من حيل الدِّفاع النَّفسي، وهي "التَّكوين العكسي" الذي يجعلك تحبُّ من تكره؛ لأنَّك لا تستطيع التَّعبير عن تلك الكراهية خوفًا من الشَّخص أو من حكم المجتمع.

ظهرت حقيقة مشاعر حسام عندما كبر وتزوَّج وقطع كلَّ صلة بزوجة أبيه، وتعدَّى ذلك إلى شتمها في رسائل هاتفية وسبها، حتى اعتقدت هي ووالده أنَّه تحت تأثير السِّحر من طرف العروس الجديدة.

وأخيرًا طلَّق حسام زوجته بإيعاز منهما، وعاد ليعيش معهما، وطلب منها أن تختار هي نفسها العروس التي ترضاها له، فزوَّجته من ابنة شقيقها.

وهكذا عاد ليعيش تحت سلطتها مجدَّدًا وباختياره "الحر"؛ لأنَّه لم يستطع الاعتماد على نفسه أبدًا، وكسب الثِّقة في قدرته على الاستقلال.

كان حسام مضطربًا في شخصيته، ولم يتخلَّص أبدًا من هيمنة تلك المرأة عليه.

بدون لطف..

كانت السَّاعة تُشير إلى العاشرة إلَّا دقائق حين بدأ ذلك الحارس "الجلف" بالصُّراخ على النَّاس: " العاشرة يعني العاشرة! لا أقل ولا أكثر! "، وكانت تعابير وجهه تُوحي بالغضب والكراهية.

كان هناك بالتَّأكيد مَن قطع عدَّة كيلومترات، ومَن استيقظ باكرًا جدًّا حتى لا يفوت موعده لدى تلك الشَّركة التي تُعالج بيانات الحصول على الفيزا لإحدى الدُّوَل الأوروبية، خاصَّة بعد كلِّ الجهد المطلوب لتوفير ملف ضخم من الوثائق والصُّور والمصاريف..

نظرت إلى ذلك الحارس الذي كان إنسانًا عاديًّا جدًّا، والذي كان سيستنكر حتمًا أن يُعامل بشكل فظٍّ إذا ما ذهب لطلب خدمة من الخدمات في أيِّ مؤسَّسة خاصة أو عامة، ورغم ذلك يستغلُّ سُويعات عمله ليُمارس "عنجهية" خرقاء على النَّاس في تماهٍ مع السُّلطة والقوَّة.

تذكَّرت دروس التَّحليل النَّفسي، وكيف أنَّ المضطربين يتقمَّصون دائمًا شخصيات هتلر ونابليون والزَّعيم والمهدي المنتظر.. ولا أحد منهم يضع نفسه مكان الأشخاص الضُّعفاء أو المعاقين أو المرضى..

الكلُّ يُريد أن يكون في مركز قوَّة، ولا يهمُّه أن يدوس على مَن تحته! حتى المجانين يصرخون في وجهك: " أنت المريض وليس أنا!"

شعرت بالملل وأنا أنتظر دوري في الصفِّ، وبدأت أقرأ المنشورات: "يمنع حمل أي شيء حاد في الحقيبة!"

تذكَّرت أنَّ حقيبتي غالبًا ما تكون مليئة بالأشياء التَّافهة، "مقلمة" رشا التي أعطتني إيَّاها بعد الامتحان الموحَّد، ومكياج خفيف، ودراهم مبعثرة، وشورت قصير لا أعرف كيف حلَّ هناك، وربَّما ملعقة صغيرة.. سيكون من الأفضل ألَّا يُفتِّش الحارس أغراضي!

مررت بجانبه عابسة دون أن أنظر إليه، وأفسح الطَّريق دون أن ينبس بكلمة!

هكذا نتعامل مع بعضنا البعض دون لطف، أو ابتسامة، أو كلمات شكر، أو تحية؛ ليكون الأمر أفضل!

العمى الانتقائي

اتَّصلت بي هاجر تُخبرني بأنَّها ستمرُّ بعد ساعات لنخرج سويًّا ونتعشَّى خارجًا، وكنت قد وصلت للتوِّ من سفري.

كان كلُّ شيء في بيتي مغبرًا خاصَّة الباحة الخلفيَّة العارية، فقلت لها بأن تُؤجِّل دعوتها لمرَّة أخرى أكون فيها أكثر استعدادًا وراحةً، لكنَّها أصرَّت كثيرًا فوافقت.

قمت إذن للاستعداد للخروج، وبذلت جهدًا في ذلك، لكنَّني تذكَّرت بأنَّ عليَّ أن أقوم ببعض المشتريات قبل أن أُرافقها.

ثم عدت فنظرت إلى الباحة الخلفية كم هي مغبرة، وقلت في نفسي: سيتطلَّب الأمر وقتًا لتنظيفها..

في نفس الوقت رنَّ الهاتف مرَّتينِ أو ثلاث رنات، وكذلك جرس الباب يُخبرني أحدهم أنَّ حارس العمارة قد ذهب.

زاد توتُّري لحظة بعد لحظة وأنا أفكر أنَّها تأخَّرت، ما يعني أنَّنا سنتأخَّر خارجًا أيضًا.

وأخيرًا عندما وصلت وهممنا بالخروج لم أجد مفتاح الباب الخارجي.

بحثت عنه في كلِّ مكان دون جدوى، وعاودت البحث بشكل أكثر نظامًا ومنهجيَّة، ثم أعدت سيناريو تنقُّلاتي كاملة، وتأكَّدت أنَّني لم أضعه خارجًا، غير أنَّني لم أجده.

مرَّت ساعة كاملة في البحث، وتأخَّر الوقت جدًّا، وقلت لها: " ها أنت ترين بنفسك، لا يمكنني الذَّهاب معك وإلَّا وجدت مشكلة عند العودة؛ فليس هناك مَن سيفتح لي من الدَّاخل."

تأسَّفت قليلًا، وقالت: "لا بأس!"

عندما ذهبت هاجر وضعت عنِّي حذائي، أدخلت يدي في حقيبتي أُخرج الهاتف منها، وإذا بالمفتاح هناك رغم أنَّني فتَّشتها أربع مرات!

لقد حصل معي ما يُسمَّى بالعمى الانتقائي الذي جعل دماغي يرفض رؤية المفتاح؛ لأنَّني لم أكن راغبة في الخروج..

نبيلة

عندما التقيت بنبيلة صدفة عند صندوق الأداء في "سوبر ماركت" بعد عشرين سنة لم أتعرَّف عليها للوهلة الأولى.

لم يكن من السَّهل ذلك بعدما انطفأت نظرات عينيها الجميلتين، وشحب وجهها، واختفت ابتسامتها، أما الشَّعر فلم يشب كليَّة، ولكن تخللته شعرات فضيَّة هنا وهناك، والأدهى من ذلك كله هي الانحناءة الطَّفيفة في ظهرها.

يا إلهي! هل فعلت السُّنون كلَّ هذا بنا؟ وددت لو علمت كيف بدوت لها بدوري أيضًا؟!

كانت نبيلة جميلة جدًّا بمقاييس تلك المدينة الجبلية الصَّغيرة التي تستحسن بياض البشرة وزرقة العينين وشقارة الشَّعر، تزوَّجت من أشهرِ أعزبَ في المؤسَّسة، أستاذ لغة فرنسيَّة يكبرها بأربعة عشر عامًا، ظلَّ يعيش في غرفة صباه عند والديه إلى أن تزوَّج، يعزف القيثارة في حفلات آخر السَّنة، ويحتفظ بملصقات كبيرة على الحائط لبريس لي وفريد الأطرش واسمهان.

أخبرتنا يومًا كيف أنَّه يُقارن بين طبخها وطبخ والدته دومًا، وكيف يذهب إلى زيارتها ويقول لها بأنَّه لم يأكل أبدًا منذ أن تزوَّج! أما هذه الأخيرة فقد كانت تُزوِّده بنصائح من نوع: "لا تُعوِّدها على الدَّلال، ولا تبدأ بالمصالحة أبدًا" "فاليوم الأول يموت القطُّ! "

اتَّصلت بها حماتها مرَّة لتقول لها: "اسمعي يا بنيَّتي، الودُّ هبة من عند الله لا يأتي بفقيه ولا طبيب!"

ومرَّة أخرى: "لا أعرف أين يذهب مال ابني، فهو لا يُدخِّن ولا يشرب، ورغم ذلك لا يُوفِّر فلسًا واحدًا!"

ضحكنا يومها كثيرًا وقلنا لها: "لو أجبتها: أنا من أُدخِّن وأشرب يا خالة!"

التقيتها مرَّة في السُّوق الأسبوعية تحمل رضيعتها بيد وتتسوَّق بأخرى، وسألتها إن كانت تحتاج للمساعدة فردَّت بأنَّ منير هناك في الجانب ينتظر داخل السيَّارة.

كان منير "فتى" كبيرًا مُدلَّلًا و"مركز الكون" لوالدته، يحكي لها تفاصيل حياته الزَّوجية حتى إنَّ نبيلة كانت تشعر وكأنَّها عارية أمامها!

كان أنانيًّا جدًّا، وكانت هي يافعة لم تكن بعد كامرأة مكتملة، ولم تكتسب ثقتها في نفسها، فصار يستعملها ويتملَّكها كشيء من أشيائه الكثيرة، وكان من الطَّبيعي ألَّا تكون سعيدة معه.

فكثيرًا ما يكون فارق السنِّ الكبير بين الأزواج مشكلة إذا كان أحدهما أقل تقديرًا لنفسه وشعورًا بأهميته؛ لأنَّه يصبح آنذاك لعبة في يد الآخر، يُمارس عليه كلَّ أنواع الابتزاز العاطفي وحتى المادي بدل أن يعيشا حياة المشاركة والسَّير جنبًا إلى جنب..

العلاقة العلاجية

جلست إحدى المريضات أمام الأخصَّائي النَّفسي، وبدأت تُعبِّر عن متاعبها، فأراد أن يُبيِّن لها بأنَّه فهمها، وقال لها: "تريدين القول بأنَّك خائفة، أليس كذلك؟"

فصرخت: "يا إلهي! الجميع يقول لي: أنت خائفة! ماذا أفعل كي يفهمني الآخرون؟ أين أجد مَن يفهمني؟" وبدأت بالبكاء.

كان مُتسرِّعًا في تلخيص ما قالته مريضته، وكان عليه أن يستمع بإحساس أكبر لينفذ إلى مشاعرها الحقيقية ومكنوناتها العميقة، ثم يُعبِّر عن ذلك الفهم، ويُعيد تأطيره وصياغته، فقد يكون الخوف تعبيرًا عن شعور بالنَّقص، أو العجز، أو القلق، أو الوحدة أو الرَّغبة في الاهتمام.. إلخ، وقد تكون المصطلحات مجرد غطاء لا تدلُّ على حقيقة الأشياء التي تدرك من خلال الأفعال، وليس الأقوال فقط.

يكون الاستماع الجيِّد في صبر مع التَّعاطف الإيجابي البعيد عن التَّمثيل، أو التَّباكي أول خطوة إذن لبناء علاقة علاجيَّة صحيحة.

كما أنَّه من المهمِّ جدًّا أن يحسَّ المريض بأنَّك فهمت عمق معاناته، وتوصَّلت إلى رؤية الأشياء من زاويته، وتقبَّلته كما هو، من المهمِّ أيضًا

ألَّا تتوحَّد معه كليَّةً، وتنفعل معه عاطفيًّا حتى تُحافظ على دورك، ويمكنه الوثوق بك.

فمَن يستطيع مساعدته هو الشَّخص الذي يمدُّ يده إليه من الخارج، وليس الشَّخص العالق معه.

نوفل

التقيت مع جاري الصَّغير نوفل، شاب في الثَّالثة والعشرين من العمر، لطيف ووسيم جدًّا، لكنَّه يصرخ أحيانًا باللَّيل تحت شرفات العمارة عندما يكون سكرانَ، ويُوقظ الكلَّ من النَّوم سُويعات قبل الفجر.

كان يصرخ قبل أيَّام باللَّيل، ويُنادي: هند! أين أنت يا هند؟ أحبُّك! عُودِي إليَّ، فقد اشتقت إليك!

قلت له: مَن هند يا نوفل التي تتركنا بدون نوم من أجلها؟

أجاب وهو يضحك بخجل: إنَّها فتاة أحبُّها، لكنَّها هاجرت مع أهلها إلى فرنسا.

قلت له: وهل ستعود؟

قال: لا أعرف، لكنَّني سأنتحر إذا لم تعد!

قلت له: ربَّما تعرَّفت على أُخرى.

ضحك وقال: وأين سأجدها؟

انصرفت عن نوفل بعدما طمأنته بأنَّه سيجد فتاته إذا تشجَّع وذهب يبحث له عن عمل بدل الجلوس في الشَّوارع بلا طائل.

فلم يكمل نوفل دراسته، وكان قد تخصَّص في إحدى التَّكوينات التَّأهيلية، ولم يبذل جهدًا للبحث عن شغل أو عن تدريب على الأقل؛ يكتسب به خبرة، أو يصنع به علاقات..

تأسَّفت كثيرًا عندما التقيت أمَّه ذات يوم، وأخبرتني بأنَّه يتعاطى المخدِّرات، ويُعاني من اضطرابات نفسيَّة أيضًا منذ انفصلت عن والده قبل عشر سنوات، وكان والده عنيفًا معها ومهملًا جدًّا تجاه أبنائه..

حياة عادلة..

كانت مليكة امرأة غير سعيدة، تعيش وحيدة بالجوار، وتُعاني من أمراض مزمنة، وتظهر عليها علامات الشَّيخوخة والتَّعاسة والشَّقاء، إلَّا أنَّها لحسن الحظِّ كانت ميسورة الحال.

وكنت بمجرَّد أن أراها ينقبض قلبي، ويضيق صدري، وأبدأ في التَّساؤل عن جدوى الحياة، ومعنى السَّعادة، والعدالة، والصحَّة، والمرض، والموت، وما بعد الموت.. فأكتئب للحظة قبل أن أنتبه إلى أنَّني لست مسؤولة عن هموم البشر، ولم آتِ إلى الدُّنيا لأُغيِّر قوانين الكون، وليست لدي عصا سحرية، ولا حتى عقل فيلسوف أستطيع به حلَّ بعض ألغاز الوجود.

حاولت مرارًا أن أطرد صورتها التي كانت تعلق بذهني، والأفكار المزعجة كلَّما التقيت بها حتى أستمتع بوقتي لنفسي، فلطالما كان التَّعاطفُ غير المعقول مصدرَ حزنٍ لي!

كنت أقول في نفسي: كم الحياة غير عادلة! وكان ذلك ينكد عليَّ حاضري، حتى حدث ما حدث..

رأيت يومًا كيف أخرجت مليكة ابنها وزوجته من منزل قديم لها لم تكن تحتاج إليه، وكانا يسكنانه في هناء وسعادة بعدما قاما بإصلاحه وتأثيته بكلِّ ما كانا يملكانِ من مدخَّرات، وكيف تغيَّر رأيها فجأةً عندما رأت نتيجة الإصلاح وإمكانية كراء البيت أو بيعه بثمن جيد..

رأيت كيف انقضَّت تلك المرأة على مجهود شابينِ متزوجينِ، وأحبطت بدايتهما السَّعيدة، وجعلتهما بين عشية وضحاها يبحثانِ لهما عن مأوى جديد دون تعويض عن خسارتهما بحجَّة أنَّهما استغلَّا البيت سابقًا.

شعرت فجأةً براحة ضمير تجاهها، وكأنَّني كنت مسؤولة عن آلامها، وزالت صورتها عن ذهني، ولم تعد تلك الأسئلة تقضُّ عليَّ مضجعي، فقد جعلتني أجد جوابًا لأسئلتي المؤرِّقة.

فصحيح أنَّ الحياة ظالمة في كثير من الأحيان في جانبها الماديِّ، من صحة، أو مال أو قوة أو شباب، لكنَّها ربَّما كانت عادلة في مواضيع أخرى؛ كالسَّعادة والطُّمأنينة والحبِّ والهناء، والتي غالبًا ما تكون من نصيب الأشخاص الشُّرفاء والأوفياء..

الحياة عطاء

قالت صفيَّة: استعبدتني أشغال البيت يا صديقتي! منذ الصَّباح وأنا أطبخ وأكنس وأغسل، ويكاد الأمر لا يتوقَّف! أما يداي فأصبحتا خشنتينِ، وقدماي صارتا كرِجْلي مُزارع، لا أفهم لماذا قبلت بهذا الوضع منذ البداية؟ هل فقط ليقال بأنَّني تزوَّجت وأنجبت؟ هل كان الأمر يستحقُّ كلَّ هذا العناء؟

قلت لها: ربَّما كان يستحقُّ، فالأولاد نجحوا وكبروا وتزوَّجوا، وكلُّ هذا بفضلك أيضًا، تخيَّلي لو كان الوضع معاكسًا، واحكمي..

قالت: كنَّا سنكون جالستين أنا وأنت في مقهى أمام الشَّاطئ؛ نقرأ الجرائد، ونشرب القهوة.

قلت: ثم ماذا بعد؟

قالت: تعود كلُّ واحدة منَّا إلى بيتها، وتستمتع بالهدوء، ومشاهدة التلفزيون، وتبرمج سفرًا في نهاية الأسبوع إلى إحدى الوجهات السِّياحيَّة.

رفعت حاجباي مُفكِّرة، وقلت: يبدو الأمر مغريًا! ولكن، ألن يكون مملًّا؟!

دعيني أتخيَّل الوضع قليلًا.. أعتقد أنَّني في هذه الحالة كنت سأتبنَّى أطفالًا، أو أذهب مع مُنظَّمات الإغاثة في حالات الطَّوارئ.. أو أُسافر بعيدًا في رحلات لاستكشاف المناطق النَّائية من صحاري وجبال أو قطب شمالي مُتجمِّد..

ضحكت صديقتي قالت: ولم؟ هل تُحبِّين معاقبة نفسك؟ أليس شيئًا جميلًا أن يعيش الإنسان مرتاحًا ومكتفيًا بذاته، وفي غنًى عن المشاكل والمتاعب وصداع الرَّأس؟

قلت لها: عزيزتي صفيَّة، الرَّاحة والفراغ هما أكبر سجن وأكبر موت، والقلب حيٌّ طالما ينبض، فإذا ما توقَّف توقَّفت معه الحياة.

من أجمل ما سمعت يومًا في أحد أفلام توم كروز، ما قاله أحدهم لشخصية البطل، وكان سائقًا لسيَّارة إسعاف، قال له: لقد تعلَّمت في مهنتي بأنَّ مَن يبقون أحياء هم الذين يظلُّ قلبهم يدقُّ! أما في البيولوجيا، فالكائنات التي تكتفي بذاتها ولا تتزاوج مع أخرى؛ فتنتهي بالانقراض بسبب فقدان التنوُّع الجيني، وكذلك في الفلسفة، ينتهي كلُّ نسق فكري مسدود ومكتفٍ بنفسه بالسُّقوط أمام أفكار أخرى جديدة وأنساق مفتوحة..

الحياة عطاء وانفتاح يا صديقتي وإلَّا فموت..

دوسي على قلبك..

إلى أيِّ حدٍّ قد يصل صبر الإنسان وتسامحه ونكرانه لذاته؟ وما الذي قد يدفعه إلى ذلك؟ وما الذي قد يُعطيه القدرة على التحمُّل والاستمرار فيه؟

أسئلة كثيرة طرحتها على نفسي وأنا أرى عزيزة، وقد رسمت التَّجاعيد أخاديد على وجهها الشَّاحب الجميل، واختفت علامات الأنوثة مِن على جسدها النَّحيل، الذي تُغطيه فساتين رخيصة بأكمام طويلة، وأطواق تصل إلى منتصف العنق.

كانت حزينة وجادَّة كأنَّما تحمل مسؤولية هذا العالم بأكمله على عاتقها! تساءلت لماذا قبلت أن تترك كلَّ شيء وتتفرَّغ لرعاية أبناء أخيها الصِّغار بعد وفاة أمهم، فلمَّا كبروا وصاروا شبَّانًا أصبحوا يتحاشون الحديث أمامها عن برامج أسفارهم وزياراتهم للآخرين حتى لا يأخذوها معهم، ولا يكونوا مضطرين لأن يشرحوا للنَّاس كيف يُنادونها: "ماما عزيزة"، وهي أخت أبيهم، بالإضافة إلى كونها أصبحت عبئًا ماديًّا عليهم بسبب آلام الظَّهر والمفاصل وأزمات الرَّبو!

ما الذي حملها على ذلك؟ ألم يكن من الممكن أن يتَّخذ أخوها مُربِّية لهم ويتركها تعيش حياتها وتبحث عن مصلحتها؟ هل كان يستطيع هو أن يُضحِّي من أجلها كما فعلت هي؟ وكيف له أن يُعوِّضها عن كلِّ السِّنين من عمرها بعدما فاتها الكثير، وصارت تعيش على فكرة أنَّها قامت بالواجب، وأنَّ ذلك كان دورها الوحيد في الحياة؟

صحيح أنَّها قامت بعمل نبيل، وهذا ممَّا لا شكَّ فيه، لكن لماذا اكتفت بهذا الدَّور ولم تحاول أن تصنع لها إنجازًا آخر وحياة أخرى؟

لماذا تكتفي النِّساء عندنا بأن يكنَّ سلالم للرِّجال، ويعتقدن بأنَّ تلك هي ميدالية البطولة والفخر؟! ولماذا لا يكون الرِّجال سلالم لهنَّ حتى يرتقين بدورهنَّ في مجالات العلم والعمل والأدوار الاجتماعية والسِّياسية الأخرى..

هل خُلِقت النِّساء للاستعباد والاستغلال؟ وكلُّ هذا مقابل ماذا؟ مقابل لقمة عيش، أو لفتة عطف تجاهها؟! مقابل أن يمسح الرَّجل عن خدِّها دمعة أسقطها هو؟!

لماذا تتحمَّل النِّساء نكران الذَّات مقابل حبِّ الأخ، أو الزَّوج أو الابن أو الابنة؟

تبًّا للعطف والحنان الذين سيجعلانك أسيرةً مدى الحياة! وتبًّا لهذا القلب الذي يستعبدك باسم المشاعر والعواطف والأحاسيس وكل قواميس الحب المضلِّلة!

دُوسي على قلبك أفضل لك، أو اجعلي له غشاءً من حديد، أو اقتليه إن كان سيبقيك دائمًا في حالة عجز أو احتياج أو اتِّكال!

ملائكة وشياطين..

حكت لي سميَّة، وقالت: لقد تحدَّثت تلك المرأة إلى زوجي بالهاتف أمس قرابة ساعة أو نصف السَّاعة على الأقل، وهي تفعل ذلك مرارًا وتكرارًا، وأحيانًا بعد منتصف الليل، فهل مثل هذا التَّصرُّف بريء؟ وأودُّ أن أُضيف ملاحظة أخرى وهي أنَّها جاوزت الأربعين، مُثقَّفة نوعًا ما، جميلة جدًّا، مُتزوِّجة، ويكبرها زوجها بعشرين عامًا حتى إنَّه يبدو كأبيها، بالإضافة إلى كونه بائع خضروات غنيًّا جدًّا، لكنه جلفٌ وبدون تعليم.

كنت قد رأيت تلك السيِّدة من قبل عندها، وعرفتها عند أصدقاء آخرين، لكن ربَّما نسيت سميَّة ذلك، فكرَّرت السُّؤال: "هل هذا التَّصرُّف بريء؟!"

أجبتها: لماذا لا تسألين زوجك؟ فهو أقدر على الإجابة بشكل أكثر دقَّة في هذا الموضوع.

– وهل سيقول الحقيقة؟

– إذا لم يقلها فستعرفين ذلك بحدسك، وسيعرف هو بأنَّك انتبهت للأمر، ويكون حافزًا له على التَّراجع إذا لم يكن الأمر بريئًا.

أضافت سميَّة: ماذا تُريد هذه المرأة منَّا؟

– إنَّه الاختيار الخاطئ، يا عزيزتي، لقد اختارت الشَّريك غير المناسب، واقترنت به من أجل ماله رغم جهله، وهي تُعاني الآن من قلَّة الحبِّ وانعدام الأنس! وأعرف عنها الكثير، أما أنت يا سميَّة فلست تخافين شيئًا، فمذ عرفتك وأنت تبذلين كلَّ شيء من أجل أسرتك، حتى الخبز تعجنينه بحبٍّ، وحتى الشَّاي تحضرينه بشغف! كنت أراك وأنت تُطرّزين اسم ابنتك على أول بذلة مدرسية لها حتى تكون مُتميّزة، ورأيت كيف تمسحين أحذية زوجك من الغبار العالق عليها كلَّما وضعها جانبًا.

رأيتك كيف تنتظرين قدومه مع الأبناء، ولا تأكلين إلَّا إذا حضروا، ثم تسألينهم واحدًا واحدًا عن يومهم كيف قضوه.

أنت يا سميَّة كنز لا يُعوَّض، وليس مثلك مَن تأخذ مكانها امرأة لاهية تبحث عن رجل يسمعها كلمات غزل أو حب بعدما أشبعها آخر ذهبًا وحريرًا، وتعتقد أنَّ كلَّ رصيد المرأة في القوام الممشوق والأرداف الممتلئة! قد تشغله تلك المرأة بعض الوقت فقط يا سميَّة لكن ليس دائمًا؛ لأنَّ الارتباط بالأشخاص لا يأتي من فراغ ولهو، وإنَّما من صدق المشاعر، واتِّصال الأفكار، وتقارب الاتجاه، وحسن الظنِّ بالآخر، وحب الخير له، ولا أعتقد أنَّها تمتلك مثل هذه المواصفات، فلو امتلكتها لما بحثت عن زوجك بعد منتصف اللَّيل، وقد عرفتك! أنت يا

سميَّة لا تخطفين الأبصار بجمالك مثلها، لكنَّك تأسرين القلوب بصفاء سريرتك، وصدق نيَّتك، ولا أعتقد رجلًا يتخلَّى عن مثلك، ما عدا شيطان أو أحمق.

في المطار..

كنَّا يومًا في أحد المطارات ننتظر شخصًا ما قادمًا من الخارج، وكانت طائرته قد تأخَّرت كثيرًا، وبينما نحن كذلك، وقفت بجانبي فتاة في سنِّ المراهقة، تبلغ ستَّة أو سبعة عشر عامًا، على أكثر تقدير.

كانت تنتظر مثلنا مع أسرتها، ثم ذهب والداها على ما يبدو إلى سيَّارتهما ليرتاحا قليلًا وطلبا منها أن تتَّصل بهما على الهاتف عند قدوم أختها التي تأخَّرت طائرتها أيضًا، ظلَّت الفتاة بجانبي طوال الوقت، حتى مرَّ أحدهم يلبس بذلة عمل، وهمس لها بشيء لم أسمعه، ثم أشار إليها لتتبعه، فالتفتت الفتاة يمينًا وشمالًا، والتحقت به غير بعيد، وأخرج هو هاتفه يُسجِّل رقمها، وكذلك هي.

كان الأمر سيكون عاديًّا لو كانت الفتاة أكبر بقليل، ولو لم يكن الشَّاب من موظَّفي المطار وأصحاب البذلات.

ثم نسيت الأمر تمامًا عند وصول ضيفتي حتى رأيت نفس الفتاة في المرآب يُعنِّفها والدها، ويشدُّها من شعرها، وهو يصرخ في وجهها بقوَّة، ويقول لها: "لماذا شتمت الرَّجل، يا قليلة الحياء، ويا عديمة التَّربية؟!"

كانت تحلف وتبكي وتقول: "هو مَن بدأ بالكلام، وطلب منِّي رقم هاتفي"، وكان موظَّف المطار هناك معهم يقول للأب: "يا سيدي، لقد سبَّتني أمام النَّاس، وشتمت والدتي التي لم أرها منذ شهور، وأهانتني"، ثم انصرف. ازداد غضب الأب وازداد ضربه لابنته، وأمُّها تُحاول تهدئته دون جدوى وهي تبكي.

تقدَّمت إلى ذلك الرَّجل وقلت له: "يا سيِّدي، لقد كانت هذه الفتاة بجانبي، ورأيت ذلك الرَّجل عندما أتى إليها يُحدِّثها، ثم أشار إليها لتتبعه، وأخرج كلٌّ منهما هاتفه، فإذا كانت تُضرب من أجل هذا التَّصرُّف فالآخر أحقُّ بالعقاب؛ لأنَّه هو من ابتدأ بالتحرُّش، وإن كانت تُضرب لغير هذا، فلا شأن لي بكم!"

نظر إليَّ الرجل وقال: بل ستُعاقب وحدها؛ لأنَّها فتاة، أما هو فرجل، ولن يلومه أحد!

قلت له: وكيف ستقنعها يومًا بأنَّ هناك عدالةً على وجه الأرض؟ وكيف ستجرؤ هي على الدِّفاع عن نفسها واحترام ذاتها، إن اعتقدت أنَّها وحدها المذنبة في فعلٍ يُشاركها فيه رجل؟! بما أنَّها عُوقبت بهذا الشَّكل؛ فيجب تقديم شكاية بذلك الموظَّف أيضًا، وإلَّا كان هذا ظلمًا بيِّنًا، وهناك كاميرات يمكن العودة إليها.

سكت الرَّجل، وانضمَّت زوجته إليَّ، وقالت له: لا أتحرَّك من مكاني حتى يتمَّ التَّحقيق في الموضوع! ودموعها تنهمر على خدَّيْها.

هدأ الرَّجل قليلًا، وبدا عليه أنَّه اقتنع، وسأل: هل تستطيعين تقديم شهادتك إن احتجنا إليك؟

قلت: طبعًا، هذا واجب.

بعد ساعة، اتَّصلت بي إدارة المطار، وسألني شخص ما عن تلك الواقعة، فسردت له ما رأيت بالضَّبط، وكانوا قد عادوا إلى الكاميرات أيضًا.

علمت من أمِّ الفتاة فيما بعد بأنَّ الموظَّف حصل على توبيخ من إدارته، وبأنَّ الفتاة شعرت بالاطمئنان، فأجبتها بأنَّ المهم هو أن تعرف ابنتها بأنَّ كلَّ شخص يتحمَّل مسؤولية أفعاله، ولا علاقة لذلك بكونه ذكرًا أو أنثى.

صوت يُمزِّق صمت اللَّيل..

ما زال نوفل يصرخ ليلًا: "هند! أين أنت يا هند؟" ولا يردُّ عليه أحد، حتى الجيران استسلموا لضجيجه، وصاروا ينامون، ويستيقظون عليه دون احتجاج. أما هو فقد استسلم بدوره للمُخدِّرات من النَّوع الرَّخيص، وصار يشمُّ لصاق الغراء، أو السيلسيوم الذي يُباع بدراهم فقط، ويُسمِّم جهازه العصبي، أمُّه أيضًا باتت لا ترى في الحيِّ خشية الملامة والعتاب.

تكلَّفت يومًا عناء التنقُّل إلى أحد مراكز الإدمان، وسألت عن إمكانيَّة استشفائه مع المبيت، فأخبرتني إحدى الموظَّفات بأنَّ العلاج متاح للكلِّ ومجاني، لكن يجب إحضار المدمن كلَّ صباح مع التَّاسعة، والعودة لأخذه بعد الظُّهر مع الثَّالثة كلَّ يوم، ثم هو حرٌّ طليق باقي النَّهار واللَّيل، ما يعني أنَّ عملهم سيذهب هباءً منثورًا حين يرجع لمخدره إلَّا إن كانت لديه أسرة تُراقبه طيلة مدَّة العلاج، وهذا ما لا يتوفَّر عليه معظم المدمنين.

هناك أيضًا مستشفيات الأمراض النَّفسية والعقلية، لكنَّها تُعاني من كثرة الطَّلب الذي يفوق عدد "الأطر" والأسرَّة بشكل مهول، وتحتاج إلى إجراءات مُعقَّدة لقبول المرضى، وحرمانهم المؤقَّت من الحرية.

وفي ظلِّ هذه الظُّروف سيظلُّ صوت نوفل وهو يُنادي على حبيبته يخترق صمت اللَّيل، وسيلجأ الجيران إن استطاعوا إلى النَّوافذ العازلة للصَّوت كي يهنؤوا بنومهم، أو يصبروا على ذلك.

ما الخطُّ الفاصل بين الحياة والموت؟

تصوَّر أن تكون جالسًا مع أحدهم، تُحادثه ويُحادثك بهدوء وهو ينظر في عينيك، كأن لا شيء هناك غير عادي، وبعد ساعة أو أكثر حين يتيقَّن أنَّك لن تستطيع إنقاذه يُخبرك بأنَّه تناول كمية قاتلة من الدَّواء!

هكذا كانت تجربتي مع "إكس"، عندما بدأت دقَّات قلبها تتسارع، وأدركت أنَّ الوقت يُزاحمها، وربَّما فات الأوان لإنقاذها.

لم أُصدِّقها في البداية، وظننت أنَّ الأمر مزحة من مزحها، حتى وضعت يدي على صدرها، ورأيت علامات الإغماء في عينيها.

سقط هاتفي من يدي، ودارت بي الأرض، وطلبت الإسعاف بجمل غير مفهومة وكلمات مُتداخلة.

إنَّه العجز أمام القدر، والضَّعف البشري واليأس والإحباط، والخوف، والحزن والألم.. كلُّ ذلك والسُّؤال هو: "لماذا؟" والجواب الذي لا يشفي ولا يقنع ولا يجدي.. كيفما كان!

وصلنا إلى المستعجلات، وكان رد مركز مقاومة السُّموم قاطعًا: "الجرعة سامَّة جدًّا، وقد تُؤدِّي إلى الوفاة."

قلت لها: هل أنت نادمة؟

قالت: نعم.

قلت: تشبَّثي إذن بالحياة، وضعي يديك في يدي، وانظري إليَّ.

كان الطَّبيب شابًّا متعاطفًا، وضع لها موسيقى هادئة من هاتفه النقَّال، بينما يدخل الأنبوب البلاستيكي في أنفها ليصل إلى معدتها وهو يغسلها حتى لا تتشنَّج وتحس بالألم، ثم أكمل بروتوكول العلاج واحدًا واحدًا..

مرَّ الوقت، ومع كلِّ نفس من أنفاسي كان يزداد تعلُّقي بالدُّعاء والرَّجاء، وعرفت أنَّ هناك أوقاتًا خارج الزَّمان والمكان، تتغيَّر فيها موازين الأشياء، وتكون على استعداد لأن تتخلَّى عن كلِّ ما تملك مقابل إنقاذ شخص ما قد يجرف ذهابه نصف كيانك وروحك، ويتركك شبحًا دون عزاء.

شكوى

اشتكى أحد أصدقاء العائلة القاطنين ببلاد المهجر، وقال: "عندما أعود إلى بلدي أكون فرحًا جدًّا، لكن سرعان ما تتبدَّد فرحتي بسبب سوء أخلاق النَّاس خصوصًا الحرفيين منهم."

ثم أطرق يحكي كيف رأى النُّجوم في "عزِّ الظهر" عندما عنَّ له أن يُصلح بيته القديم، فكان أن نصب عليه النجَّار والبنَّاء والرصَّاص والصبَّاغ والجبَّاص..

ولم يجد رجلًا صالحًا فيهم، فإمَّا يخلفون المواعيد، أو يغشُّون في العمل، أو يسرقون البضاعة، أو يتَّفقون على مبلغ من المال، ثم يُطالبون بالمزيد بحجَّة أنَّهم أخطأوا التَّقدير أول الأمر أو يكذبون!

استطرد يقول: ظننت في البداية أنَّني إذا لبَّيتهم استحيوا وقابلوا معاملتي الحسنة بالوفاء والإخلاص؛ فكانت النَّتيجة عكس ذلك؛ ازداد طمعهم، وازدادت مراوغاتهم، وعبثهم بي.

وأخيرًا، قال: إنَّهم في الغالب مفتقرون جدًّا، أو محرومون كثيرًا إلى درجة أنَّ الأجور التي نُقدِّمها لهم كقطرة ماء على أرض جرداء منذ سنين، لا تبلُّها ولا ترويها، بل تزيدها عطشًا ونهمًا، فهم دائمًا في طلب

للمزيد، ليتهم فقط يطالبون بالمال ولا يغشُّون ويكذبون، أما أن تجمع الطَّمع مع سوء الأخلاق؛ فهذا مما لا يُطاق.

مقاومة التغيير

هل نُصبح مع الوقت أقلَّ تلاؤمًا مع التَّغيير وأكثر مقاومة له؟ هل نفقد مرونتنا الفكريَّة والجسديَّة معًا مع ازدياد السَّنوات؟

أعتقد أنَّ هذا ما صار يحصل معي سنةً بعد سنة وفصلًا بعد فصل.

فمع مجيء الصَّيف تصرُّ بناتي على الذَّهاب إلى البحر، والنُّزول في الفنادق، والأكل في المطاعم، بينما لا أرغب أنا إلَّا في مشاهدة التلفاز ببيتي، واللَّعب مع كلبتي التي أضحت لا تُفارقني.

حتى عندما أرضخ لهنَّ وأذهب إلى سهرة من السَّهرات أجدني لا أستمتع كالسَّابق بكثرة الصَّخب والضَّحك، وأستثقلُ لبس المجوهرات والإكسسوارات ووضع الكريمات!

حتى عندما جاء النَّادل بقائمة الطَّعام؛ طلبت طبقًا لبنانيًّا بسيطًا وعصير جزر! فقالت إحدى بناتي: "أنت –يا أمِّي– روح بروليتارية حتى الصَّميم، ولن تُغيِّرك الظُّروف، ولو صارت عندك ملايين!"

أجبتها بأنَّه من الصَّعب أن تتغيَّر المعادن، فعندما يكون قلبك بروليتاريًّا لا يجعل منك تواجدك مع الأثرياء شخصًا بورجوازيًّا، ولو صرت تملك بعض ما يملكون!

كيمياء الدِّماغ

لا زلت أتذكَّر عندما قرأت قبل زمن أحد الكتب التي تتحدَّث عن كيمياء الدِّماغ ودورها في تكوين مشاعر التَّجاذب أو التَّنافر بين الأشخاص.

كان هناك دور كبير للفيرومونات في ذلك، وما تُحدثه من ردود فعل بيولوجية عند الحيوان كما عند الإنسان.

أحسست بخيبة أمل كبيرة آنذاك، ضربت ما تبقَّى لديَّ من أوهام الطُّفولة حول كلِّ ما هو مثالي ورومانسي، وصرت أرى كلَّ ما حولي مجرَّد استجابات أو حاجات لغرائز تمليها الطَّبيعة!

وأين الإنسان في كلِّ ذلك؟ تساءلت كم مرَّة عن هذا!

أين مثله وقِيَمه التي يكون مستعدًّا لأن يموت من أجلها؟

وقدرته على التَّضحية من أجل أسرته أو قبيلته أو وطنه؟

هل هي أيضًا شغل كيمياء؟

ثم وفاؤه لمن يحبُّ.. أيمكن أن تشرحه البيولوجيا؟

وقراراته التي يختار في اتِّخاذها، وتسير به عكس اتِّجاهاته؟

وتصوُّره لعوالم أخرى؟

وعدم اكتفائه بما يسدُّ حاجاته؟

وبحثه عن الكمال؟

و.. و.. و..

خلصت في النِّهاية إلى أنَّ هناك بعدًا آخر فينا يجعلنا أكبر من أن تتحكَّم فينا كيمياء الدِّماغ أو الوراثة، وسرَّني ذلك كثيرًا؛ لأنَّني أحبُّ أن أعتقد بأنَّ الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يتحكَّم في ذاته ويسمو عليها، ويُغيِّر حتى مسار أقداره..

يكفي أن تكون رجلًا عاديًّا..

أذكر أنَّني ظللت أعتقد إلى الثَّانية عشرة من عمري أنَّ كلَّ الآباء يتشابهون، وقد يبدو ذلك سخيفا جدًّا ومضحكًا لكنَّه حقيقيٌّ.

كنت أظنُّ أنَّهم جميعهم وقورون، يطيلون الصَّمت، ولا يضحكون كثيرًا، لا يُدخِّنون، ولا يتعرون أمام أبنائهم، ولا يرقصون، حتى انتقلنا إلى مسكن آخر بجوار إحدى العائلات وتعرَّفنا عليهم.

هناك التقيت بفتاة صارت رفيقتي في الطَّريق إلى الإعدادية، وصديقتي بالبيت، أطرق بابها، وتطرق بابي في كلِّ وقت.

فاجأني أول الأمر منظر والدها وهو يُغيِّر ملابسه في الصَّالون، ثم منظره وهو يُدخِّن بالبيت، وأكثر من ذلك استمتاعه بالموسيقى والرَّقص عليها! أما أغرب شيء كان في الموضوع هو تحدُّثه بطلاقة وحرية مع أبنائه وابنته في كلِّ شيء!

أحسست آنذاك بالغبن، وأنَّني لا أملك أبًا "عصريًّا" وأسرة "مُتفتِّحة" و "مرحة"، وغبطت صديقتي على "سعادتها" وعيشها في أسرة "جذَّابة" تنظر إلى الحياة بشكل مختلف!

يكفي أنَّ أشرطة الفيديو لديهم كانت تفوق عدد الكتب المجلَّدة لدينا! أما أقلام الشفاه والعيون فلم تكن تُعادلها سوى أقلام الحبر الجافة الحمراء التي كانت تُصحِّح بها أمي أوراق تلاميذها! وأما خطب الأخلاق والمواعظ عندنا؛ فقد كانت فرصة للنكت والضَّحك عندهم! كانوا بلا شك سعداء!

لم يتغيَّر والدي كثيرًا مع تقدُّمه في السنِّ لكنَّه صار يقلق على أبنائه وأحفاده، ويُبدي سعادته بهم، وصار يحبُّ أن يكون له دور في توجيههم.

واليوم فقط فهمت كم كان أبًا جيِّدًا؛ لأنَّه ببساطة لم يترك البيت يومًا أبدًا إلَّا في أوقات عمله، ولم يكن يُجالس أصحابه في المقاهي، ولم يكن يسمح بدخول شخص غريب إلى الدَّار، وكان لا يسأل عن الزَّائرات: مَن هنَّ؟ ويبتعد حتى يتصرَّفن كما يحلو لهنَّ، وكان لا يغضب، ولا يصرخ، ولا يضرب، ويترك ذلك لأمِّي، ثم ينعتها مازحًا بـ"العاصفة!"

كان حاضرًا طوال الوقت في صمت وتواضع وصبر، يتدخَّل حين يقتضي الأمر، ويترك مسافة حين يكون كلُّ شيء بخير! لم يحتج إلى صفات مميزة ليكون أبًا صالحًا، كان فقط عاديًّا، ولكن أمينًا ومخلصًا وصادقًا!

خارج البيت

جاءت إحدى صديقات ابنتي غاضبة من أهلها يومًا، وقضت النَّهار كاملًا معنا، وعندما حلَّ المساء سألتها إن كانوا على علم بأنَّها ستبيت، فأجابتني بأنَّها أخبرتهم بذلك، قلت لها: "لا بأس إذن، سيكون كلُّ شيء على ما يرام."

وتذكَّرت عندما تعرَّضت مرَّة في طفولتي إلى توبيخ قاسٍ جدًّا لسبب من الأسباب، وقرَّرت الذَّهاب عند إحدى الصَّديقات دون إخبار أهلي، ظنُّوا في بادئ الأمر أنَّني هناك في مكان ما حتى حلَّ وقت الغذاء، ثم صار اليوم إلى العصر وما بعد العصر، فانتابهم القلق الشَّديد، وبدأوا بالبحث عند الجيران والأقارب والأصدقاء..

كنت أعرف أنَّهم لن يجدوني عند أسماء، زميلتي الرِّيفية التي لا يعرفون عنها شيئًا، ولحسن الحظِّ لم تسألني أسماء عن سبب زيارتي المفاجئة لها رغم التجهُّم الذي كان واضحًا على وجهي.

لم نلعب، ولم نتحدَّث كثيرًا، فقط استمتعت بطبق الحلوى الذي قدَّمته أمُّها لي، وكانت لطيفة جدًّا، حتى تمنَّيت لو أنَّها تبنَّتني! لكنَّها سألتني للأسف الشَّديد إن كنت أخبرت أهلي بمجيئي عندهم؛ فلم

أستطع أن أكذب عليها، وقلت: "لا". آنذاك احتضنتني، وقالت لي: "أخبريهم وعُودي متى شئت، وابقي معنا كما يحلو لك."

تركتهم وأنا في غاية الحسرة والأسف، لكنَّني غيرت رأيي سريعًا عندما رأيت مدى الإزعاج والهلع الذي سبَّبه غيابي في البيت.

يبدو أنَّهم يحبونني، وليسوا "أشرارًا" كما تصوَّرت!

فتاة في العشرين

كيف يمكنك مساعدة فتاة في العشرين من العمر، تدرس بعيدًا عن والديها، وتقول بأنَّهما لا يهتمَّان بها؟

تقول بأنَّها اشتاقت لحضن أمِّها، وترغب في عناقها، لكنَّها لا تستطيع فعل ذلك؛ لأنَّها جرَّبت مرَّة فدفعتها بعيدًا عنها!

انكسرت للحظة، وخفضت عينيها، وخفت صوتها، وهي تقول: رأيت كيف تعاملين ابنتك، ليتها كانت تفعل مثلك!

أجبتها: الأمر مختلف تمامًا، فتعبيرنا عن الحنان مع الابن الأصغر أو البنت الصُّغرى ليس هو نفسه مع البِكْر، خاصَّة إذا كان فارق السنِّ مع هذا الأخير لا يفوق العقدينِ، وقد فهمت من كلامك سابقًا أنَّ أمَّك ما زالت شابة، ما يعني أنَّها أنجبتك وهي لم تتعدَّ العشرين.

قالت: صحيح، لقد تزوَّجت ماما في فترة "الباكالوريا"، وأنجبتني وهي تدرس بالسَّنة الأولى من الجامعة.

قلت لها: أظنُّك فهمت أنَّها لم تكن تعي جيدًا مسؤولياتها، وربَّما لم تكن على استعداد للأمومة بعد، وكثير من الأمهات في مثل هذا العمر

يتركن أبناءهن للجدَّات حتى يعتنين بهم، أما هي فعلى الأقلِّ حاولت جهدها لكي تقوم بدورها؟

أجابت: بل عشت مع جدَّتي طوال فترة الطُّفولة!

قلت لها: أحيانًا أيضًا تُضحِّي الأم الشَّابة بمشاعر الأمومة لكيلا تنافس الجدَّة في حب الابن أو الابنة، ويكون ذلك قاسيًا عليها، ولا تبوح به كشكل من أشكال التَّضحية والإيثار.

قالت: أو ليس من حقِّي أن تكون لي أمٌّ؟ هل عاملت ابنتك البكر يومًا هكذا؟

أجبتها: لقد كدت أن أفعل مثلها أيضًا، لكنَّني استدركت الأمر قبل فوات الأوان، لذلك أظنُّ أنَّه من الأفضل أن تُؤخِّر النِّساء إنجاب الأطفال حتى السَّادسة والعشرين لكي يأخذن حظهنَّ من التَّعليم والسَّفر واللَّهْو، ويصبحن قادرات على تحمُّل عبء الأمومة، فهذا شيء لا يُستهان به إطلاقًا.

سألت: وما الحلُّ بالنِّسبة لي؟

أجبتها: الحلُّ يحتاج إلى وقت طويل وصبر، لكن لنبدأ بالخطوة الأولى وهي أن تُركِّزي على دراستك!

ذهبت وجلست أُفكِّر في الموضوع؛ لأنَّني أعرف أنَّها ستتألَّم كثيرًا، وربَّما ستكتئب بسبب ذلك، أو تسقط في حبِّ أول رجل يتودَّد إليها،

أو تسلك طريقًا آخر غير آمن، أو تختار أن تُركِّز على النَّجاح فتنجو من ذلك، وتساءلت كم يكفي من الوقت لإقناع الأسر بأن تُحبَّ أبناءها وبناتها، وتُبدي لهم الحنان والعطف حتى يكونوا آمنين؟

كم يكفي من الوقت لكي يعلموا بأنَّهم حجر الأساس في تكوين شخصية الطِّفل وخطوته الأولى في الطَّريق الصَّحيح؟

كم يكفي؟!

أحلام الفقراء

عندما قرأت قصَّة "اللُّؤلؤة" للكاتب الأمريكي الرَّائع جون ستاينبيك منذ أعوام، فهمت كيف تموت أحلام الفقراء وتُوؤد، كيف يختطفها منهم النَّهمون من البشر الجشعون، المصَّاصون للدِّماء؟!

يقولون بأنَّ الكتاب الجيِّد هو الذي يُغيِّر فيك شيئًا ما عند قراءته أو بعدها، وهو الذي تصبح عند الانتهاء منه شخصًا غير الشَّخص الذي كنت، أو على الأقل نظرتك غير النَّظرة لشيء ما.

أما عن قصَّة "اللُّؤلؤة"، فهي تحكي كيف وجد البطل كينو جوهرة ثمينة في أعماق البحر وسطع الأمل في أفقه مُتخيِّلًا أنَّه سيستطيع منح مستقبل مشرق لابنه البكر الوحيد، ظنَّ أنَّه سيمنحه تعليمًا وتربيةً، ويجعله رجلًا محترمًا بين النَّاس، يعرف القراءة والكتابة، ويعيش ظروفًا سعيدة.

لكن تجَّار اللُّؤلؤ اتَّفقوا على أن يبخسوا من قيمة جوهرته الفريدة حتى يضطرَّ لبيعها بأقل الأثمان.

حتى لما أراد السَّفر إلى العاصمة للبحث عن مشترٍ جيد، تبعه أحدهم لكي يسرقه ويجهض محاولاته؛ فعاد خائبًا.

وأخيرًا كاد البطل كينو أن يقتل في عقر كوخه بسبب اللُّؤلؤة اللعينة، ثم صار قاتلًا، وهو يدافع عنها، أو بالأحرى عن آماله التي علق عليها.

هرب كينو في النِّهاية مع زوجته وابنهما عبر الجبال، ثم تعقبه ثلاثة رجال، وأطلقوا رصاصة قضت على ابنه الرَّضيع كيوتيتو؛ فانهارت أحلام البطل كقصر من الرِّمال.

عاد كينو إلى قريته مستسلمًا، ورمى باللُّؤلؤة بعيدًا في المياه؛ لأنَّه علم ألَّا مستقبل لمن يحلم وهو كسير الجناح، ولا حقَّ لمن يطلب شيئًا وهو مستضعف بين الأقوياء.

تذكَّرت هذه القصَّة وأنا أقارن بين ما قطعه العالم من أشواط في التُّكنولوجيا والحضارة والعمران، وبين ما لم يرتقه بعد من درجات في سلالم الرَّحمة والإنسان.

حياة ما بعد الخمسين

لم أرَ في حياتي مثل السيِّدة فلانة، تجاوزت الخمسين ولا تزال تركب الدرَّاجة الهوائية، وتقطع الكيلومترات على الأقدام في رحلات جبلية، وتحتفظ ببنية جسديَّة صلبة وقوية!

تصبغ أبواب بيتها ونوافذه بنفسها، وكذلك طلاء الجدران، وتصنع لوحات زيتية، وتخيط أثوابها في البيت؛ لأنَّها قلَّما تجد مقاسها الذي يتعدَّى المتر والثَّمانين.

عملاقة جدًّا، ورشيقة أيضًا، ولديها الكثير من المعلومات المتعلِّقة بالصحَّة، والطَّبخ، والتَّزيين والنَّباتات.. لكنَّها صعبة التَّعامل، وشديدة التصلُّب بشكل يجعل التَّحاور معها شاقًّا ومضنيًا.

تساءلت كم مرَّة وأنا أشاهدها تقوم بهواياتها عمَّا هو أفضل: أن يعيش الإنسان كلَّ فترة عمرية على حدة، فيتَّصف بالهدوء والحكمة في الكبر مقابل الجموح والقوَّة في الصِّغر؟ أم يستميت في الحفاظ على قدرات الشَّباب وميزاتها وكأنَّها صفات أبدية؟

ألن يكون في هذه الحالة الأخيرة أشبه بالدون كيشوت وهو يُحارب الطَّواحين الهوائية ويدخل سابقًا في حرب خاسرة؟

أم ربَّما كان تقديري للأمور يأتي فقط من ميولات للرَّاحة وحب للتأمُّل والقراءة، فيُخيَّل إليَّ دائمًا بأنَّها الاختيار الصَّحيح!

ماذا لو كان كل ما تفعله، بالكاد يُناسب طاقاتها الجسدية الهائلة؟

لقد سبق أن فهم نيتشه بأنَّ المعايير والأحكام نخضعها غالبًا لرغباتنا وقدراتنا حتى تتناسب مع ذواتنا؛ لذلك من الأفضل ألَّا نكون دائمًا قطعيين..

الرَّاقصون

"الرَّاقصون"، هكذا سمَّاهم ميلان كونديرا في أحد قصصه الممتعة، أولئك الأشخاص الذين يحبُّون التَّمثيل على الآخرين وعرض أنفسهم، يضعون أقنعة تُؤاتي كلَّ ظرف، يُفتنون الآخرين بسحر كلامهم وجاذبيتهم؛ ليصوتوا عليهم، أغلبهم سياسيون أو رجال أعمال أو كبار مسؤولون..

إذا حكوا نكتة يضحك لها الجميع، ويتقرَّب الكل منهم؛ لنيل نصيب من الأضواء، تزيد ثقتهم في أنفسهم أحيانًا إلى حدِّ العجرفة، فيحاولون ارتكاب إحدى الحماقات من أجل اختبار مدى تسامح النَّاس معهم ومدى قوَّتهم.

"الرَّاقصون" معجبون بأنفسهم إلى حدِّ الغرور، يتوهَّمون أنَّهم مُتفوِّقون في كلِّ شيء، ويسمحون لأنفسهم بازدراء الآخرين والدَّوس عليهم بالأقدام.

قد يصل بهم الزَّهو والأنانية إلى حدِّ الصَّمم والعمى، فلا يرون إلَّا ظلالهم، ولا يسمعون سوى أصواتهم، يقولون لك: "ما أريكم إلَّا ما أرى وما أهديكم إلَّا سبيل الرَّشاد!"

"الرَّاقصون" يبتسمون طوال الوقت لكن عندما تسقط أقنعتهم يكشرون عن الأنياب ويتحوَّلون إلى ذئاب.

قد يغبطهم النَّاس على نجاحاتهم البرَّاقة، لكنَّهم بداخلهم تعساء جدًّا؛ لأنهم يبحثون باستمرار عن نظرات الإعجاب وعبارات الاستحسان التي تُغذِّي الأنا الفارغة خاصَّتهم..

صناعة التَّعاسة

قامت سعيدة ترقص على نغمات شعبية، وتتمايل بجسدها المكتنز، وشعرها يتطاير في الهواء، وهي تُحرِّك رأسها يمينًا وشمالًا، وكأنَّها دخلت في شطحات صوفية.

كانت أشبه بشخص مجنون تملَّكه عفريت أو جان، وربَّما لو شاهدها طفل لارتعب من المشهد، لكنَّها توقَّفت أخيرًا مع توقُّف الموسيقى الصَّاخبة التي نزلت بالتَّدريج، فعادت سعيدة إلى مكانها وهي تتصبَّب عرقًا، إلَّا أنَّها كانت في منتهى الانشراح والابتسام.

عندما خرجت من الحفل، أدركت لماذا كانت تشعر النِّساء بالارتياح في السَّابق بعد حفلات "الزَّار" أو "الجدبة" عندما يرقصن حتى الإغماء، لقد كنَّ يُفرِّغن طاقاتهنَّ السَّلبية بتلك الطَّريقة، ويُعبِّرن بأجسادهنَّ عمَّا في الدَّاخل من مكبوتات وأحزان، ثم يشعرن بالرَّاحة.

سعيدة مثلًا تعيش وضعًا صعبًا، لكنَّها ستعود إلى بيتها بعد الحفل، وهي على استعداد لتحمُّل إيذاء حماتها بكلِّ أريحية مدَّة ستة أشهر على الأقل!

رأيتها أيضًا كيف أكلت بشهيَّة أكبر بعد الرَّقص المجنون وضحكت وهي تقهقه، وتقول: "لقد أغرقنا الهم في العسل اليوم!"

نعم، يمكن "إغراق الهم في العسل" عندما تركنه جانبًا وتبتعد عن مصدره قليلًا قبل أن يتمكَّن منك ويصبح كالرِّمال المتحركة التي تبتلع مَن يدخل إليها.

لو ظلَّت سعيدة تُقاوم أحزانها في صمت مدَّة طويلة لسكنتها، ولصارت لحظات الفرح عندها شحيحة مثل المياه في صيف قاحل، أو هشَّة مثل بالونة هواء قرب الشَّوك، والأسوء من ذلك أنَّها كانت ستنقل عدوى التَّعاسة إلى باقي أسرتها.

في قريتنا مثلًا، يُعبِّرون لك عن حبِّهم بالبكاء والعويل إذا أصابك مكروه، أو كنت مريضًا حتى يلقوا فيك الفزع، وتعتقد بأنَّك على شفير الموت حقًّا، ويُجهزون عليك بذلك تمامًا!

حضرت مرَّة في مرض إحدى نساء القرية، وكانت في كامل قواها العقلية عندما بدأ صبيب الزَّائرات في التدفُّق، وكنَّ يبكين ويتحدَّثن أمامها عن موتها المحتمل، قلت آنذاك لأمي: "سيقتلونها قبل الأوان!" فأجابتني: "هكذا نحن، قد تصل بإحداهنَّ بأن تُوصيك على مقعد قربك في الجنة وأنت مريضة!" لم أتمالك نفسي من الضَّحك، وضحكت هي أيضًا، وقلَّما نتَّفق أنا وهي على شيء!

أذكر أيضًا أحد الأقارب الذي ذهب للدِّراسة بالخارج ولم يعد إلَّا بعد سنوات؛ لأنَّه لم يكن يتحمَّل رؤية أمِّه التي تلطم الخدود بسبب وبلا سبب! كما أذكر أيضًا أحد الأصدقاء الذي كان يرتعد خوفًا كلَّما اتَّصل به مُتَّصل من أقاربه؛ لأن ذلك كان يعني حصول مكروه أو سوء، أو طلب مساعدة!

وأخيرًا ما أخبرتني به إحدى الصَّديقات، وهي تضحك، عن أهل زوجها الذين لا يقولون أبدًا: "صباح الخير" أو "عيدًا مباركًا" أو "يومًا جميلًا!"

صناعة التَّعاسة المتجذِّرة في ثقافتنا، لا تدفع بالشَّخص إلى الأمام والتَّفاؤل، بل تضع عراقيل للنَّاجحين كما تجهز على المتعثِّرين..

في حالة الأبناء مثلًا، إذا أردتهم أن يكونوا سعداء متفائلين؛ فكن سعيدًا ومتفائلًا قبلهم!

الحبُّ في زمن الكوليرا

رواية "الحب في زمن الكوليرا" للكاتب الكولومبي كابرييل كارسيا ماركيز، الحائز على نوبل للآداب سنة 1982م، تزخر بالكثير من التَّفاصيل الدَّقيقة عن المجتمع الذي تدور فيه أحداث القصَّة.

فبعيدًا عن جوهر الرِّواية الذي يتحدَّث فيها عن انتظار شاب لفتاة أحلامه مدَّة خمسين سنة حتى صار الاثنان عجوزينِ، أزعجتني إحدى مغامرات "البطل" الذي كان يتنقَّل من علاقة لأخرى وهو رافض تمامًا للزَّواج كي يظلَّ عازبًا على أمل اللِّقاء بحبيبته فيرمينا دازا، يومًا ما.

"البطل"، أو الأصح "الشَّخصية الرَّئيسة"؛ لأنَّ البطولة تحيلنا غالبًا على الشَّهامة والشَّجاعة، وكل الصِّفات الحميدة، في حين كان فلورونتينو عزيزة نذلًا في كثير من الأحيان.

كانت أنذل مغامراته وأحقرها مع فتاة تصغره سنًّا بعقود، ربَّما بثلاثين سنة أو أكثر، تعرَّف عليها عن طريق أسرتها التي أوصته برعايتها خلال دراستها الجامعية؛ لأنَّها كانت ستقطن لأول مرَّة بعيدًا عنهم، وبدل الوفاء بالوعد لتلك الأسرة، فتن فلورونتينو عزيزة الفتاة، وجعلها تحبُّه بقوة وتُصاحبه مدة طويلة، ثم تخلَّى عنها ودفعها إلى الانتحار.

جعلني ذلك أُفكِّر كثيرًا في أولئك الشُّيوخ الذين يأتمنهم النَّاس على بناتهم بحجَّة أنَّهم رجال صالحون أو محترمون، ثم يكتشفون بعد ذلك أنَّهم كانوا مخطئين كثيرًا، فأحيانًا يكون الشَّباب أفضل أمانة منهم؛ لأنَّهم في عمر ما تزال القلوب ترتجف فيه من الحب والخوف والحياء، وترفض هدر مشاعرها بلا معنى..

عندما أتحدَّث عن الشُّيوخ هنا، تحضرني صورة إحدى نزيلات مستشفى الأمراض النَّفسية التي حدَّثتني عن أحدهم، الذي كان صديقًا لوالدها، وطمع فيها وهي فتاة في العشر سنوات! كما تحضرني أيضا صورة أحد المتأنِّقين وهو يركب سيَّارة فارهة ويُزاول مهنة حرَّة لكنَّه بدون أيِّ شرف أو أمانة، إلى درجة أنَّك لا تستطيع ترك أطفالك معه لحظة واحدة! فقد يمدُّ يده عليهم بمجرَّد أن تلتفت يمينًا أو يسارًا!

هؤلاء الذِّئاب البشريَّة التي تترصَّد مَن يرون في الكبار وجوهًا أبوية، ويعتقدون أنَّهم في أمان معها، تمامًا كما حصل مع "القبعة الحمراء" وهي تحاور ذئب الغابة الذي أكل الجدَّة ولبس فستانها!

تجاعيد الخيبة والمرارة

جلست زوجة مهدي في آخر طرف من المائدة رغم أنَّ زوجها كان هو المضيف، وبينهما ثلاثة أشخاص، وآخرون في الجانب المقابل.

في قواعد الدَّعوات الفرنسية مثلًا، كان من المفترض أن تجلس قبالة زوجها في المنتصف وضيفاهما الرَّئيسان على يمين كلِّ واحد منهما، ثم الآخرون.

لم تكن أيضًا في كامل أناقتها كما اعتادت، وكانت عابسة قليلًا، وعندما حضر "النَّادل" قالت بنبرة جادة بأنَّها صائمة، ولن تطلب شيئًا، وكان الوقت ليلًا! سبَّب ذلك بعض الدَّهشة والإحراج لضيوفها، إلَّا أنَّ زوجها أضاف تعليقات ضاحكة ونكتًا ساخرة حول أنماط "الرِّيجيم" الجديدة، وأساليب فَقْد الوزن وغيرها ليُلطِّف الجوَّ ويعتذر بدلًا عنها، خصوصًا أنَّها لم تكن المرة الأولى التي تقوم فيها بذلك، فقد أحرجته مرارًا على الملأ بإظهار العداء لأقربائه وأصدقائه!

ظلَّت إذن تنتظر في آخر طرف من المائدة أن ينتهي العشاء وهي تعبث بهاتفها، وزوجها يتحدَّث ويضحك، ويملأ الفراغات حتى لا ينتبه

أصدقاؤه لما قد يبدو قلَّة ذوق ولا مبالاة من ناحيتها، وهي صامتة لا تقول كلمة ترحيب واحدة!

كنت أراها لأول مرَّة بدون ماكياج، فبدت لي التَّجاعيد العمودية على شفتها العليا، تلك التَّجاعيد التي تُعطي للشَّخص هيئة صارمة، وتجعله يبدو قاسيًا شيئًا ما، يُسمِّيها البعض "تجاعيد الخيبة والمرارة".

ربَّما كانت تحسُّ بالخيبة والمرارة، شأنها شأن معظم زوجات الأثرياء الذين عرفتهم؛ لأن الأعمال والأموال تجعلهم في شغل دائم ولقاءات مُستمرَّة، وتجعلهم محور اهتمام الكثيرين، بينما تحبُّ المرأة أن يكون زوجها لها وحدها.

لكنَّ الغريب في الأمر أنَّ هؤلاء النِّساء أنفسهنَّ يتذمَّرن حين يقعد أزواجهنَّ عن العمل ويتركون مناصبهم وأشغالهم أحيانًا!

أذكر أنَّ أحد الأصدقاء ترك منصبًا جيِّدًا من أجل التفرُّغ لأسرته حتى يرضي زوجته التي كانت في شكوى مستمرة، ثم فُوجئ بها بعد ذلك، وهي تلومه على قلَّة طموحه، والفرص التي فوَّتها ليرتقي إلى منصب عالٍ! وكذلك أخرى طلبت الطَّلاق بعدما قرَّر زوجها تقديم استقالته من إحدى المؤسَّسات المرموقة، وكانت دائمًا ما تشتكي من غيابه!

سيظلُّ التَّوازن بين الطُّموح واحتياجات الأسرة معضلة كبيرة عند الكثيرين من الأزواج على ما يبدو، كما سيظلُّ الاختيار بين التَّواجد الدَّائم للزَّوج أو غيابه المستمر مشكلة عند الكثيرات من النساء..

كذلك التَّأرجح الدَّائم الذي تحدَّث عنه شوبنهاور بين الرَّغبة والملل، في بحث مستمرٍّ عن حالة رضا لا يمكن أن تُوجد دون معرفة حقيقية لأولوياتنا وما نريده بالضَّبط من الحياة..

النَّجاح والغواية

كانت تلك المرأة هي الغواية نفسها، تتَّصل به عشر مرَّات قبل أن تتَّصل بها مرَّة واحدة لتُحاول إيهامها بأنَّها صديقتها، ثم تدعو نفسها بنفسها بعد ذلك لزيارتها في بيتها حتى يتسنَّى لها أن تلتقي به.

والمضحك أكثر هو كلام العجائز الذي كانت تُردِّده على مسامعها، "الدُّنيا فانية لا تستحقُّ منَّا أي اهتمام"، "أُقسم يا حبيبتي، ما تجمعنا سوى المحبَّة الصَّافية!" "وعلينا أن نجتمع بين الحين والآخر"، "فهاته الأوقات هي كلُّ ما نأخذه من الدُّنيا"، "أحبُّك تمامًا كأختي.."، "وحق الطَّعام الذي شاركنا"...إلخ. من الكلام المبتذل الذي لا يعني شيئًا ويُخفي أشياء..

كان كلامها يُؤذي الأذن من كثرة النِّفاق الذي يغلفه والسُّوء الذي يبطنه، يكفي أن تكون شخصًا شفافًا لتدرك أنَّه الكذب الملوَّن، والعسل المدسوس فيه السُّم.

ترمي شباكها هنا وهناك وهي على علم بأنَّ الوقت يُداهمها، وخريف العمر على الأبواب، وما هي سوى عشر سنوات ليبدأ جمالها في الانحطاط، وتذوي كما تذبل الزَّهرة في المساء، ويختفي بريق الشَّباب..

فشلت في كلِّ شيء! في أن تكون أمًّا جيِّدة ومحبوبة، أو زوجة مُخلصة، أو سيِّدة محترمة، أو إنسانة مُتعلِّمة، أو امرأة مُطلَّقة جادَّة.. وأرادت أن تحصل على كلِّ ذلك بضربة حظٍّ واحدة، بالزَّواج من رجل مُتزوِّج أنفق ثلاثين سنة من عمره في بناء صَرْح من العمل والبحث الجاد والالتزام، ليُقال: امرأة فلان!

لكم حيَّرني أمر النِّساء أمثالها! تضيع الحياة منهنَّ سُدى في تصيُّد الرجل المميَّز بدل أن يصبحن هنَّ أيضًا مُميزات. وكأنَّ التَّفوُّق خُلِق للرِّجال فقط، أما النِّساء فشَارة من الشَّارات يُعلِّقونها كدليل على النَّجاح!

ربيعة

عاشت ربيعة بيننا زمنًا لا أعرف مقداره، لكنَّها غادرت عندما كنت في الخامسة العاشرة من عمري بعدما تزوَّجت شخصًا لا أعرفه.

لم أتساءل أبدًا مَن هي، ولماذا تقوم بأشغال البيت، ومن أين أتت، وهل تشتاق لأهلها أم لا؟

كان وجودها يبدو طبيعيًّا جدًّا بحيث لا يثير أيَّ تساؤل أو دهشة، ورغم أنَّ فارق السنِّ بيننا لم يكن كبيرا جدًّا إلَّا أنَّها كانت أكثر نضجًا وعمقًا بكثير!

قلت لها ذات مرَّة بعدما غسلت الأواني وكنست البيت: أرأيت كم ساعدتك اليوم في أشغال المنزل؟

فأجابت: لم تساعديني، فهذا بيتكم وليس بيتي!

قلت لها باستغراب واضح: ولكن.. أليست هذه أشغالك؟ أما أنا فلست مُجبرة على القيام بها!

أجابت: تُنظِّفين بيتك وتمنّين عليَّ؟

ازداد استغرابي من قولها، خاصَّة أنَّه بدَا منطقيًّا جدًّا! فذهبت أسأل أمي إن كانت ربيعة على صواب، وكنت أرجع إليها في كلِّ أمر أحتار فيه؛ لأنَّ لديها أجوبة لكل شيء!

قالت أمي: ربيعة على حقٍّ، كلُّ مَن في البيت مسؤول عن نظافته والعناية به حسب قدرته وما يسمح به وقته. أما هي فمُساعدتي أنا، أثق بها، وأوكل إليها أمور بيتي، وليس لأحد غيري أن يُطالبها بشيء، أو ينتظر منها تبريرًا على شيء! ما عدا هذا فأنتم سواء في البيت مثلها!

علَّمتني ربيعة درسًا لم أنسَه طوال حياتي، فمن يعملون لديك هم من يحقُّ لهم أن يمنُّوا عليك؛ لأنَّهم يُساعدونك في تحقيق أهدافك ونجاحاتك ويبقون في الظلِّ، بينما نُقدِّم لهم نحن مقابلًا ماديًّا قد يكون كافيًا أو غير كافٍ لهم، دون أن نعبأ بأحلامهم أو ندري شيئًا عن تضحياتهم!

قالت لي يومًا أيضًا: أنت لست أفضل منِّي كي أقوم بخدمتك، فقط هي الحياة تدور بنا حيث تشاء!

كانت يتيمة الأب، واستولى عمُّها على إرثها؛ فاضطرَّت للعمل وهي ما تزال يافعة جدًّا، ولم يكن لديَّ أي علم بما يمكن أن تعيشه فتاة مثلها! فقط هي الحياة تدور بنا حيث تشاء كما قالت!

حزن الصَّداقة

أحيانًا تكون بعض الكلمات كالرَّصاصة التي تصيب الصَّداقة في مقتل، وتُحطِّم علاقة امتدَّت لسنوات.

لم يعرف حسن كيف تحوَّل من شخص وديع إلى إنسان عنيف وفظٍّ، يُهاجم صديق طفولته مصطفى في لحظة غضب عارمة، إلى درجة أنَّ هذا الأخير أُصيب بدهشة بالغة جعلته يتساءل إن كان يعرفه حقًّا طوال الوقت الذي مضى من حياتهما أم لا.

كان يحبُّه كثيرًا، ويجعله في منزلة الأخ أو أكثر، ولم يخطر بباله أبدًا أنَّ هناك في الحياة ما يمكن أن يُكدِّر ما بينهما من صفو وودٍّ!

حتى النِّساء والحب لا يستطيعان ذلك!

كان مخطئًا!

لقد نسي بأنَّ أول جرم في البشرية مارسه قابيل في حقِّ أخيه؛ كان بسبب امرأة!

لم تتغيَّر أمورهما كثيرًا في الظَّاهر بعد الخلاف الذي نشب بينهما بسبب سوء الفهم الكبير ذلك، لكنَّ شرخًا ما ظلَّ مفتوحًا في صدريهما.

ورغم المحاولات اليائسة من أجل النِّسيان، وكلمات اللَّباقة التي تخرج من الحلق دون الصَّدر، والابتسامات المرسومة على الوجوه والتي تُكذِّبها العيون، خيَّم حزن عميق بداخليهما.

كانت تلك أول وآخر نكسة في علاقتهما؛ لأنَّه ما عاد ممكنًا أن يتشاركا أسرارهما بعدما صنع الألم جدارًا فاصلًا بينهما..

النهاية

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا –في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايينَ من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأَةِ والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

هـذا العمـل الإبـداعي برعايـة داربسـمة للنشـر الإلكترونـي
بشـــراكة مـــع جـــروب ملتقـــى الأقـــلام المُبدعـــة...

للاطلاع على الصفحة الرسمة لداربسمة للنشر الإلكتروني على الفيسبوك، اضغط على الأيقونة.

للاطلاع على جروب ملتقى الأقلام المبدعة على الفيســـبوك، اضـــغط علـــى الأيقونـــة.

المُحتَويات

الإهداء 6
أصدقاء وأصدقاء.............................. 8
عجوز قاسية 11
فوضى 13
حرية................................... 15
لمياء 17
علاقة صعبة............................. 20
عقوبة سجن 22
سميرة وأنا.............................. 24
من الماضي.. أستاذة اللُّغة العربية.................. 25
من الماضي.. فتاة جذَّابة......................... 26
حالة نكوص 27

ارتياح.....29
مرض وولادة 31
أينما وُجِد الحب.....33
مخالفات في الطريق.....36
آباء وأبناء.....38
طفلة سعيدة.....39
الجروة غيلي 41
عاملة المدرسة 43
حبٌّ وعداءٌ.....45
أمل 47
الحاجة فاطمة 49
من الماضي.. قلق.....52
منتصف الطَّريق.....54
مغامرة.....57
حب في المقهى.....59
جنون اللَّحظات.....61
امرأة غير عادية.....62
المحلِّل النَّفسي 64

صدقٌ ومشاعر 66
لحظة انكسار 68
رسالة نصية..... 71
نفرتيتي..... 73
حبٌّ ومَوْتٌ..... 75
سحر اللَّحظة..... 77
علاقاتٌ سامَّةٌ..... 79
اضطراب ما بعد الولادة..... 82
قتله العجز 85
إنَّه أخوك 87
بيتٌ مُنظَّمٌ جدًّا..... 91
العقد الأحمر..... 93
نجوميَّة السَّعادة..... 96
علاقة متوترة..... 98
همَّةٌ ضعيفةٌ 100
قطَّة في قسم الطبِّ النَّفسي 103
حديثٌ في الحدائق.....105
المولودة فتاةٌ.....108

أرض وهواء 110
فقر المعنى 113
حرمان 116
عبقرية التَّحرُّش 117
قشر باذنجان 119
الحاجة فاطمة والحنين إلى الماضي 121
السيد مصطفى 123
اضطراب الشَّخصية المتعدِّدة 126
رمزيَّة العلاقة 129
إدارة بلهاء 131
مريومة والكلب 133
ابتسامة 135
امرأة ضعيفة! 137
التَّكوين العكسي والنُّكوص 139
بدون لطف.. 141
العمى الانتقائي 143
نبيلة 145
العلاقة العلاجية 148

نوفل.....150
حياة عادلة.....152
الحياة عطاء 154
دوسي على قلبك.....156
ملائكة وشياطين.....159
في المطار.....162
صوت يُمزّق صمت اللَّيل.....165
ما الخطُّ الفاصل بين الحياة والموت؟.....167
شكوى 169
مقاومة التغيير.....171
كيمياء الدِّماغ.....172
يكفي أن تكون رجلًا عاديًّا.....174
خارج البيت.....176
فتاة في العشرين.....178
أحلام الفقراء.....181
حياة ما بعد الخمسين 183
الرَّاقصون.....185
صناعة التَّعاسة.....187

الحبُّ في زمن الكوليرا 190
تجاعيد الخيبة والمرارة 192
النَّجاح والغواية 195
ربيعة 197
حزن الصَّداقة..... 199

نساء تائهات

كم هي الحياة جميلة حينما نأخذها بعفوية وبساطة، حين نأخذ الكلمات على محملها الظاهر فقط ولا نبحث في معانيها البعيدة ولا وراء السطور. عندما نعيش اللحظة فقط ولا نحاول سبرَ أغوار المستقبل البعيد.

كمْ يفسد علينا التفكير سعادتنا عندما يبقينا يقظين، واعين بكل شيء فلا يترك لنا فرصة للحلم، أو الهروب من الواقع.

كمْ يفسد علينا الخوف من الخيبات أيضا من فرص ذهبية.

تعلمنا ونحن صغار بأن علينا أن نحتاط من البرد، وأن تطأ أقدامنا الأرض بحذر، وأن نفكر مليا قبل أن نتكلم...

لم نتعلم أن ندخل المغامرة، ونقامر أحيانا ونحتاط أخرى، وأن لا نتحسر أبدا.

أن ندخل السباقات الخطيرة وتسلق الجبال الشاهقة والقفز بالمظلات.

أن نستشعر جنون اللحظات القوية والانفعالات الشديدة التي تضيف للحياة طعما خاصا وتجعلها مميزة وجميلة بشكل استثنائي

دار البسمة للنشر الإلكتروني
bassmabook
00212771814934
darbassma1@gmail.com